Health Communications, Inc.



NEW YORK TIMES & USA TODAY BESTSELLER

#1 INTERNATIONAL BESTSELLER

أكثر الكتب مبيعا على لائحة جريدتي
USA Today و New York Times
الكتاب الأكثر مبيعا على مستوى العالم أجمع

طفل اسمه "نكرة"

شجاعة طفل للبقاء على قيد الحياة

إليك منال .. مع كل الود والتقدير

دايف بيلزر

الفصل

1

الإنقاذ

5 آذار 1973، ديلي سيتي، كاليفورنيا ـــ

تأخرتُ. عليّ أن أنهي غسل الأطباق في الوقت المحدد، وإلاّ فلن أحصل على الفطور! عليّ تدبُّر ما آكلُه بما أنني لم أتناول طعام العشاء أمس. أتت أمي! إنها تجوب المنزل، تصرخ على أخويّ. أستطيع سماع خطواتها المتثاقلة تتقدم في الردهة متجهة نحو المطبخ.

أغرقتُ يديّ في ماء الغسل الشديد السخونة، لكن سبق السيفُ العَذَل. لقد أدركتني، وأمسكت بي مُخرجة يديّ من الماء، وإذا بها تصفعني على الوجه فتطرحني أرضاً. لكنني أذكى من أن أقف أمامها أتلقى صفعاتها! فقد تعرّفتُ طريقتها القاسية في ضربي بكثرة، والأسوأ من الضرب، في حرماني من الطعام. نهضتُ، منتصباً على قدميّ مجدداً، أجتنب نظراتها وقد أخذتْ تصرخ في أذنيّ وتصرخ.

في العادة، أتصرف بحياء تجاهها، وأخضع لتهديدها ووعيدها، وأتوسلها في سرّي: "أرجوكِ، دعيني آكُل فقط، اضربيني بعدُ، لكن عليّ أن آكُل!".

وإذا بلطمة أخرى تضرب رأسي بحافة حوض الغسل، فأطلقتُ العنان لدمعي الزائف يسيل على وجنتيّ وهي تخرج من المطبخ، وعلامات الرضى على وجهها. فتنفّست الصعداء بعد أن عددتُ خطواتها، وتأكّدتُ من رحيلها.

نجحت خطتي في التصرّف بحياء. باستطاعة أمي أن تضربني قدر ما تشاء، لكنني لن أسمح لها بأن تسلبني إرادتي في البقاء على قيد الحياة.

أقوم بغسل الأطباق عادةً، وأؤدي الأعمال المنزلية الأخرى، فيكون الفطور مكافأتي – بعض من فضلات طعام أحد أخويّ صدف أن تركها في طبقه.

واليوم يوم سعدي! بقي في زُبدية الحليب بضع حبات ذرة، فتاتٌ منها.... فابتلعتها بأسرع ما يمكن قبل أن تبدّل امي رأيها. إذ سبق لها أن فعلت هذا بي. إنها تستمتع في استخدام الطعام سلاحاً لها. وهي أذكى من أن ترمي الفضلات في سلة القمامة، لعلمِها بأنني سأنقّب فيها لاحقاً. باتت أمي تعرف كل حِيلي تقريباً.

وبعد قليل، ركبت سيارة العائلة القديمة، فلا بُدّ من أن يُقلّوني لأني تأخرتُ في إنهاء الأعمال المنزلية. في العادة، أذهب إلى المدرسة ركضاً وأصل عند بدء الدروس تماماً فيكون الوقت قد نفد مني لسرقة الطعام من عُلب أترابي.

أنزلت أمي ابنها البكر، لكنها أبقتني لتُسمعني محاضرة عمّا خططت لي ليوم غد. ستصحبني إلى منزل أخيها. تقول إن الخال دان سوف "يرعاني". وقولها بمثابة تهديد لي. فنظرتُ إليها نظرة الخائف، كما لو أن الخوف يعتريني حقًا! لكن، مهما كان خالي

متجبّراً، من المؤكد أنه لن يُعاملني كما تفعل أمي.

وقبل أن تتوقف السيارة كلياً، ترجّلتُ منها بسرعة. فصاحت أمي بي لأعود. لقد نسيتُ علبة الطعام المهترئة التي تحتوي، يومياً في السنوات الثلاث الأخيرة، على صنف الطعام نفسه: سندويشتَي زبدة الفستق والقليل من قطع الجزر.

ثم قالت لي قبل أن أخرج من السيارة مجدداً: "أخبرهم بأنكَ... ارتطمت بالباب".

وأردفتْ بنبرة نادراً ما تكلّمني بها: "نهاراً مُمتعاً".

فنظرتُ إلى عيني أمي المحمرّتين جحوظاً، ولاحظتُ فيهما بعضاً من مخلّفات دهْشتها ليلة أمس.

بات شعرها جَعداً متقصّفاً بعد أن كان لامعاً جميلاً. وكعادتها، لم تعد تتبرّج، وقد سمنت، وهي على علم بذلك. باختصار، هذا ما آل إليه مظهر أمي النموذجي.

وبما أنني تأخّرت عن المدرسة، يتوجّب عليّ رفع تقرير إلى الإدارة. استقبلتني السكرتيرة ذات الشعر الأشيب، وحيّتني بابتسامة. وبعد لحظات، ظهرت ممرضة المدرسة وقادتني إلى مكتبها حيث كرّرنا العمل الروتيني المعتاد. أخذت تتفحّص جسدي، ثم وجهي فذراعيّ.

وسألتني: "ما هذا فوق عينك؟".

نكّستُ رأسي خَجِلاً: "لقد... ارتطمتُ بالباب..لكن عن غير قصد".

ابتسمت لي، ثم تناولت لوح ملاحظات من على أحد الرفوف، قلّبت أوراقه، صفحة أو اثنتين، وانحنت إليّ لتُريني أمراً ما.

قالت وهي تشير إلى سطر محدد في الورقة: "أنظر، قُلتَ الأمر

نفسه يوم الاثنين الفائت، ألا تذكر؟".

فبدّلتُ قصتي على الفور: "كنتُ ألعب البايسبول وتلقّيتُ ضربة مضرب...كان حادثاً".

"كان حادثاً"، عليّ ترداد هذه العبارة على الدوام! لكن الممرضة أذكى من ذلك. كانت توبّخني وتطلب مني قول الحقيقة. فأستسلم في النهاية وأعترف لها، لكن بي ما يحثّني على حماية أمي. عندئذ، تقول لي الممرضة إنني سأكون على ما يرام، وتطلب مني أن أخلع ملابسي. أنا أقوم بذلك منذ السنة الماضية، فأُطيعها على الفور.

كان عدد الثقوب في أكمام قميصي أكثر مما في الجبنة السويسرية! أرتدي هذا القميص منذ سنتين تقريباً. وتجبرني أمي على ارتدائه كل يوم كوسيلة لإذلالي. وليس سروالي أفضل حالاً من القميص. أما حذائي فلديه ثقوب عند الأصابع، حتى إنني أُخرج إبهامي من أحدها وأروح أحرّكه.

وقفتُ أمام الممرضة مُجرّداً من ثيابي في ما عدا لباسي الداخلي، فشرعت في تدوين كل الكدمات والندبات المختلفة على جسدي وعدّ الندبات على وجهي، باحثةً عن واحدة لربما فوّتتها في المرة السابقة. إنها في غاية الدقة والإتقان.

بعدئذ، فتحت فمي كي تتفحص أسناني المتكسّرة جرّاء دفعي بقوة على حافة حوض الغسل. فدوّنت بعض الملاحظات الأخرى.

وفيما هي تنظر إلى جسدي كله، توقفت عند تلك الندبة القديمة على معدتي. وقالت وهي تبتلع ريقها: "وهذه؟ أهنا حيث طعنتكَ؟".

أجبتها: "نعم، سيدتي". ثم قُلت في نفسي: "رباه! لا! ارتكبتُ حماقة مرة أخرى".

لا بُد أن الممرضة لاحظت القلق في عينيّ، فوضعت اللوح جانباً وضمّتني إلى صدرها. قلتُ في نفسي: "الله... يا لَدفئها!". لم أشأ أن تَحل عناقها عني، ووددتُ أن أبقى بين ذراعيها إلى الأبد. فأغمضتُ جفنيّ بشدة وإذا بالوجود ينتفي للحظات معدودة، ما عدانا. أخذتْ تُداعب رأسي، فانتفضتُ من مكاني بفعل الكدمة التي تلقّيتها من أمي هذا الصباح. عندئذ، ابتعدتْ الممرضة عني وغادرت الغرفة. فأسرعتُ في ارتداء ملابسي. إنها لا تعلم بذلك، لكنني أقوم بالأمور بأسرع ما يمكنني.

ثم عادت الممرضة بعد دقائق قليلة يُرافقها مدير المدرسة السيد هانسن، ومعهما اثنان من أساتذتي: الآنسة وودز والسيد زيغلر. بات السيد هانسن يعرفني تمام المعرفة، إذ دخلتُ مكتبه أكثر من أي صبي آخر في المدرسة. كان ينظر إلى الورقة، فيما راحت الممرضة تُملي مُلاحظاتها. فرفع ذقني. أخشى النظر في عينيه. وقد استحال ذلك عادة غالباً ما أتّبعها في تعاطيّ مع أمي، ولكن أيضاً كي أجتنب إخباره بأي شيء.

فذات مرة، منذ سنة تقريباً، استدعى أمي ليسألها عن سبب وجود الكدمات على جسدي. لم يعلم البتة ما كان يجري فعلياً آنذاك. لم يعلم سوى أنني ولد شرير يسرق الطعام. وعندما ذهبت إلى المدرسة في اليوم التالي، رأى ما حلّ بي نتيجة تعرّضي للضرب على يد أمي. فلم يتصل بها ثانيةً مطلقاً.

راح السيد هانسن يصرخ بصوت عالٍ ويقول إنه سئم كل هذا. شعرتُ وكأن روحي تفارقني من فرط الخوف، فصرخ عقلي: "سيتصل بأمي مجدداً!". سقطتُ أرضاً، انفجرتُ بكاءً، وبدأتُ أرتجف كالجيلاتين وأتمتم كلماتي كالأطفال، وأتوسّل السيد هانسن

ألاّ يتّصل بأمي. وقلتُ بصوت يَئِن: "أتوسلك... لا... ليس اليوم! ألا تُدرك، إنه الجمعة؟".

فطمأنني السيد هانسن بأنه لن يتصل بأمي، ثم أرسلني إلى الصف. وبما أنني تأخرت على تسجيل اسمي، هرعتُ إلى صف معلمة اللغة الإنكليزية، السيدة وودوُرث. كان يوم امتحان التهجئة عن الولايات وعاصمة كلٍ منها. لم أستعدّ للامتحان مسبقاً. أُعَدّ طالباً مجتهداً في العادة، إلاّ أنني عدلتُ عن كل شيء في حياتي خلال الأشهر الماضية، بما فيه الفرار من بؤسي عبر دروسي.

وما إن دخلت الصف حتى سَدّ زملائي أنوفهم، وراحوا يسخرون مني. أما المعلمة البديلة، وهي امرأة شابة، فلوّحت بيديها أمام وجهها. لم تكن معتادة على رائحتي. ثم ناولتني ورقة الامتحان وهي تقف على مسافة مني، وقبل أن أتمكن من الجلوس في مقعدي القابع في مؤخرة الصف بمحاذاة النافذة المفتوحة، استُدعيتُ ثانية إلى مكتب المدير. فأطلق الصف على مسمعي صوتاً أشبه بالنباح – هو في الواقع تعبير عن نبذهم لي.

توجّهت نحو الإدارة راكضاً، ووصلتها بسرعة البرق. كان حلقي جافاً، ولا أزال أشعر به ملتهباً جرّاء "اللعبة" التي لَعِبتها أمي ضدي أمس.

أدخلتني السكرتيرة ديوان الأساتذة فاتحة الباب. لم أعِ ما رأته عيناي إلاّ بعد لحظات: كان أمامي طاولة جلس إليها السيد زيغلر أستاذ صف التسجيل، ومعلمة الرياضيات الآنسة موس، وممرضة المدرسة، والسيد هانسن، وضابط من الشرطة. تسمّرتُ قدماي. لم أدرِ ما العمل، فإما أن ألوذ بالفرار أو أنتظر السقف ليُطبق عليّ.

وفيما السكرتيرة تُغلق الباب، أشار عليّ السيد هانسن بالدخول. جلستُ إلى رأس الطاولة موضحاً إنني لم أسرق شيئاً... اليوم. ارتسمت الابتسامة على وجوه الحاضرين المكتئبة. لم أعلم أنهم كانوا على وشك خسارة أعمالهم لإنقاذي.

أطلعني الضابط على سبب اتصال السيد هانسن به. كُنت أشعر بجسدي ينقبض على الكرسي. ثم طلب مني أن أحكي له عن أمي. أومأتُ برأسي رافضاً الإجابة. يعرف الكثيرون سرّي، وستعلم أمي لا محالة بما قد أقوله. فتناهى إليّ صوتٌ رقيق هدّأ من روعي. أظن أنها الآنسة موس. قالت لي إنه لا بأس بذلك. أخذتُ نفساً عميقاً، شددتُ يديّ ورُحت أسرد لهم على مضض حكايتي مع أمي. ثم طلبتْ مني الممرضة أن أقف، وأظهرتُ للضابط الندبة على صدري. فأخبرتُهم من دون تردّد أنها حادثة، وأن أمي لم تقصد أن تطعنني. فاضت عيناي دمعاً وبكيتُ وأنا أُفشي لهم سرّي. وأخبرتهم بأن أمي تُعاقبني لأنني ولد شرير. كمْ وددت لو يدعوني وشأني. أشعر بنفسي دنيئة، وأعرف أنه، بعد انقضاء كل هذه السنوات، يعجز أيّ إنسان عن مساعدتي.

وبعد قليل، سُمح إليّ بالجلوس في المكتب الخارجي. وفيما أنا أغلق الباب، نظر إليّ جميع هؤلاء الراشدون وأومأوا برؤوسهم إيجاباً. جلست على الكرسي أتململ قلقاً وأراقب السكرتيرة تطبعُ بعض الأوراق. شعرتُ بالزمن قد أوقف عجلته إلى حين استدعاني السيد هانسن مجدداً. نهض السيد زيغلر والآنسة وودز وغادرا. بدت علامات السعادة على وجهيهما، وقد وشّحها بعض القلق. انحنت الآنسة وودز وعانقتني. لا أظن أنني سأنسى رائحة شعرها العابقة. ثم ابتعدتُ لئلا أراها تبكي. فاعتراني القلق فعلاً عندئذ.

قدّم لي السيد هانسن الطعام من مطعم الخدمة الذاتية (الكافيتيريا). فتساءلتُ: "إلهي! وهل حان وقت الغداء بهذه السرعة؟". التهمتُ الطعام بسرعة فائقة، بحيث بالكاد تذوّقت طعمه. فأنهيتُ ما في الصينية مسجلاً رقماً قياسياً. وسرعان ما عاد المدير بحوزته علبة كعك. ونبّهني ألاّ آكلها بسرعة.

لم أملك أدنى فكرة عمّا يجري!

كان أحد الحاضرين أبي المنفصل عن أمي. أتى لاصطحابي. لكنه وهم! لقد طلب الشرطي أن أعطيه عنواني ورقم هاتف المنزل. فقُلتُ: "هذا كل ما في الأمر إذن! سأرجع لأقاسي الجحيم! لأقاسيه على يديها مجدداً".

دوّن الضابط المزيد من الملاحظات. بدا الارتياب على السيد هانسن وممرضة المدرسة. وبعد قليل، أغلق الضابط دفتر الملاحظات وأخبر السيد هانسن بأنه حصل على ما يكفي من المعلومات. رفعتُ ناظري نحو المدير. كان وجهه يتصبّب عرقاً. بدأت معدتي تتقبض، إني أشعر بها. أردتُ دخول الحمام لأتقيأ.

فتح السيد هانسن الباب، فرأيتُ الأساتذة مجتمعين لاستراحة الغداء. حدّق جميعهم إليّ. اعتراني خجل شديد عندها، "إنهم يعلمون بالحقيقة، كل الحقيقية بشأن أمي". من المهم جداً أن يعرفوا أنني لستُ شريراً. كم أود أن أكون محبوباً.

نزلتُ الردهة. كان السيد زيغلر يُمسك بالآنسة ودز. كانت تبكي. استطعت سماعها تشهق. عانقتني مرة أخرى ثم ابتعدت عني بسرعة. شبك السيد زيغلر يده بيدي قائلاً: "كُن ولداً عاقلاً".

ولم أستطع قول أي شيء سوى: "نعم سيدي. سأحاول".

وقفت الممرضة بصمت إلى جانب السيد هانسن. وَدّعوني جميعاً. فأدركتُ بأنني ذاهب إلى السجن. "هذا جيد. على الأقل لن تتمكن أمي من ضربي وأنا في السجن".

مشيتُ مع ضابط الشرطة خارجاً، ومررنا بجانب الكافيتيريا. رأيت بعض أترابي في الصف يلعبون بالكرة. فتوقف بعضهم عن اللعب وراحوا يصرخون: "طردوا دايفيد! طردوا دايفيد".

ربّت الشرطي على كتفي قائلاً إن كل شيء سيكون على ما يرام. وفيما هو يُقلّني خارج مدرسة "توماس إيدسون الإبتدائية"، شاهدتُ بعض الأولاد وقد بان الحزن عليهم إثر رحيلي. وقبل أن أغادر، أخبرني السيد زيغلر بأنه سيُعلم الأطفال بالحقيقة، كل الحقيقة. قد أتخلى عن عالمي كله لأكون موجوداً في الصف معهم عندما يعلمون بأنني لم أكن ولداً شريراً.

هي لحظات معدودة ونصل إلى مركز شرطة ديلي سيتي. كنتُ أتوقّع وجود أمي هناك. لم أشأ الترجّل من السيارة. فتح الضابط الباب وأخذني من منكبي بلطف متوجّهاً بي إلى مكتب كبير خلا من أشخاص آخرين. جلس الشرطي على الكرسي في الزاوية حيث راح يطبع عدة أوراق. أخذت أراقبه عن كثب وآكل كعكاتي بروية. تلذّذتُ بطعمها قدر الإمكان، فلا أعلم متى قد آكل مجدداً.

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ظهراً عندما أنهى الشرطي عمله. ثم سألني ثانية عن رقم هاتف منزلنا.

قُلتُ وانا أئن: "لماذا؟".

أردف بلطف: "عليّ ان أتصل بها يا دايفيد".

"لا. أعدني إلى المدرسة. ألا تُدرك أنها يجب أن لا تعرف ما قلتُه!".

فهدأ من روعي بواسطة كعكة أخرى، وراح يطلب الأرقام بروية: 0-6-4-2-6-5-7. كنتُ أراقب قرص الهاتف الأسود يدور، وأنا أتوجه نحوه أشدّ جسدي كله محاولاً سماع صوت الهاتف يرنّ في الجهة الأخرى حيث أجابت أمي. أفزعني صوتها. لوّح لي الشرطي كي أبتعد وآخذ نفساً عميقاً قبل أن يقول: "سيدة بيلرز... الضابط سميث من مركز شرطة ديلي سيتي يتكلم إليك. ابنك دايفيد لن يرجع إلى المنزل اليوم. سيُأخذ إلى سجن "سان ماتيو للأحداث". إن كان لديك أي أسئلة تفضلي واتصلي بالمسؤولين هناك".

أقفل السماعة، ابتسم لي، ثم سألني: "لم يكن ذلك شاقاً، أليس كذلك؟". وتفرّستُ في نظرته ووجهه. إنه يشاء أن يطمئن نفسه في الدرجة الأولى.

سِرنا أميالاً قليلة، أدركنا بعدها طريق 280 العامة، وتوجّهنا خارج ضواحي ديلي سيتي. التفتُ إلى يميني ورأيت لافتة كُتب عليها: "الطريق العام الأكثر جمالاً في العالم".

وباجتيازنا حدود المدينة، ابتسم الضابط بارتياح قائلاً: "دايفيد بيلزر... أنتَ حرّ!".

فقلتُ "ماذا؟"، متشبّثاً بمورد غذائي الوحيد. وأردفت: "لا أفهم! ألن تأخذني إلى سجنٍ ما؟".

فابتسم مجدداً ووضع قبضته على كتفي برفق: "لا يا دايفيد. لا تقلق أبداً، صدّقني. لن تؤذيك أمك بعد اليوم!".

ألقيتُ بظهري على المقعد. دخلتْ عينيّ أشعةُ الشمس، فأشحتُ وجهي عنها لتنسكب على وجنتي دمعة واحدة...

"حرٌّ... أنا!؟".

الفصل الثاني

2

أيام حلوة

في السنوات التي سبقت تعرُضي لإساءة المُعاملة، كانت عائلتي تحيا بسعادة في الستينات من القرن العشرين. وقد أنعم الله على أخويَّ وعليَّ بوالدين مثاليَيْن. كانا يحقّقان لنا كل أمانينا بحبٍ ورعاية.

عشنا في منزل متواضع من غرفتيّ نوم، ما اعتُبر "جيداً" في ديلي سيتي آنذاك. لا أزال أذكر حينما كنتُ أقف إلى نافذة غرفة الجلوس، أحدّق إلى الأبراج الأرجوانية المُشعّة من "غولدن غايت بريدج" وإلى سماء سان فرانسيسكو الجميلة.

كان اسم أبي "ستيفان جوزيف". أعالَ العائلة من عمله كرجل إطفاء في أحد المراكز في وسط سان فرانسيسكو. كان فارع الطول، ضخم الجثة وعريض المنكبين، وكان له ساعدان يفخر بهما أي رجل رياضي. يتلاءم حاجباه الكثيفان مع شعره. وكنتُ أشعر بالتميُّز متى غمزني وناداني "أيها النمر".

كان اسم أمي "كاثرين روريفا"، امرأة معتدلة القدّ والحُسن. لم أذكر يوماً ما كان لون شعرها أو عينيها. لكنها كانت تتّقد حباً تجاه أطفالها. وكان العزم أعظم مقوّماتها. كانت تبتكر الأفكار دوماً وتدبّر كل شؤون العائلة.

ذات مرة، عندما كنت في الرابعة أو الخامسة من العمر، قالت لي ماما إنها مريضة. وأذكر أنها لم تبدُ في حالتها السويّة. ذهب أبي إلى العمل ذاك اليوم. أعدّت ماما العشاء ثم نهضت عن الطاولة بسرعة وأخذت تطلي درجات السلَّم المؤدّية إلى المرَآب. لازمها السُعال وهي تطلي بالأحمر وباضطراب كل درجة. وقبل أن يجف الطلاء بالكامل، تناولت ماما ممسحة ومرّرتها على درجات السلّم. فاصطبغت الممسحة وماما أيضاً بالطلاء الأحمر. وما إن انتهت حتّى عادت إلى المنزل وتهالكت على الأريكة. وأذكر أنني سألتها لماذا مرّرتْ الممسحة على الطلاء قبل أن يجف، فأجابتني: "أريد مفاجأة والدك فقط".

أما في ما خص تدبير المنزل، فكانت ماما بارعة ونظيفة تماماً. تعوّدتْ أن تُطعم أخويّ رونالد وستان، وتُعدّ لي الفطور. ثم تشرع في إزالة الغبار، وتهوئة الغرف، وتنظيف الأثاث والأرض بالمكنسة الكهربائية. لم تكن لتترك زاوية واحدة إلاّ وتمعنُ في تنظيفها. وعندما كبرنا، حرصت ماما على أن نُبقي غرفنا نظيفة. كانت تولي حديقة الزهور خارجاً عناية خاصة. وأثارت هذه الحديقة حسد الجيران كلهم. فمتى لمست ماما شيئاً ما، استحال على الفور ذهباً. كانت تتمّ عملها. وغالباً ما أوصتنا القيام بما في وسعنا، في كل أمر نُقدِمُ عليه.

وكانت ماما طاهية موهوبة فعلاً. أظن أن تحضير الوجبات الغريبة والجديدة كان عملها المفضّل من بين باقي الأمور التي قامت بها من أجلنا. وغالباً ما فعلت ذلك أيام وجود أبي في المنزل؛ فتنفق قسطاً وافراً من النهار في تحضير إحدى وجباتها المُذهلة.

وعند وجود أبي في العمل، تعوّدت ماما أن تَصحبنا في جولات

سياحية حول المدينة. وذات يوم اصطحبتنا إلى "تشاينا تاون" في سان فرانسيسكو. طُفنا المدينة بالسيارة، فراحت تُخبرنا عن الحضارة الصينية وتاريخ الشعب الصيني. وعندما عُدنا إلى المنزل، وضعت ماما شريطاً في المسجّلة، وامتلأ المكان بأنغام شرقية عذبة. بعدئذ، زيّنت حجرة الطعام بمصابيح صينية الصنع. وارتدتْ لباس الكيمونو، وأعدّت وجبة بدت لنا غريبة جداً، غير أننا تلذّذنا بطعمها. وقبل رفع العشاء عن الطاولة، قدّمت ماما لنا كعكات الحظ، وقرأتْ لنا ما كتب على القُصاصات داخلها. أحسستُ بأن العبارة في قصاصتي ستقودني على دروب قدري.

وبعد مرور عدة سنوات، أي عندما أضحيتُ بعمرٍ يخوّلني القراءة، وجدتُ إحدى قُصاصات الحظ وقد كُتِب عليها: "أَحبَّ أمّك وأكرِمها لأنها الثمرة التي تمنحك الحياة".

آنذاك، عجّ منزلنا بالكلاب والقطط والأحواض المائية. وضعنا في تلك الأحواض أسماكاً فريدة النوع وسلحفاة أمريكية كان اسمها "تور". أذكرها جيداً، فقد سمحت لي ماما بانتقاء اسم لها. شعرتُ بالفخر عند اختيارها أخويّ لتسمية الكلاب والقطط، فحظيتُ بتسمية السلحفاة. انتقيتُ لها اسمَ شخصيّتي المفضّلة من الرسوم المتحرّكة.

وتوزّعت الأحواض المائية، من صغيرة وكبيرة، في أرجاء المنزل كله. كان هناك اثنان منها على الأقل في غرفة الجلوس، وحوض صغير في غرفة نومنا. أبدعت ماما في تزيينها بالحصى والأوراق المعدنية الملوّنة، وبكل ما اعتقدت أنه سيُضفي عليها طابعاً يتماشى والواقع.

غالباً ما كنا نجلس إلى جانب الأحواض لتُخبرنا ماما عن أنواع الأسماك المختلفة.

وفي عصر أحد أيام الأحد، لقّنتنا ماما أكثر الدروس إثارة. فقد كانت إحدى القطط تتصرف بغرابة. طلبت ماما منا أن نجلس جميعاً بجانبها، وراحت تشرح لنا عملية الإنجاب. وبعد أن انزلقت جميع القطط الصغيرة بسلام من بطن الهرة الأم، أخذت ماما تُخبرنا بالتفصيل، عن أسرار الحياة وعجائبها. ومهما كانت انشغالاتنا، كانت تَعمد إلى تلقيننا دروساً بنّاءة. مع ذلك، غفِلنا أنها كانت تحاول تعليمنا.

في تلك السنوات الحلوة، كانت عشيّة 31 تشرين الأول بداية العطل بالنسبة للعائلة. وذات ليلة من ليالي تشرين الأول، كان القمر بدراً، فاستعجلتنا ماما، أخواي وأنا، إلى الخارج كي نتأمل "اللقطينة العُظمى" في السماء. وعندما عُدنا إلى غرفة النوم طلبت منا أن نبحث تحت الوسادات، فوجدنا سيارات سباق ماتشبوكس صغيرة. فصرخنا من شدّة الفرح. وتورّد وجه ماما بالاعتزاز والفخر.

كانت تطلب منّا ماما أن نجلس بجانب الموقدة لنشرب شراب البيض المخفوق والحليب. وتروح تحكي لنا القصص على أنغام أغنيات "بينغ كروسبي" بنظام صوتي مجسَّم. أثناء تلك العُطل، كنتُ أشعر بحماسة كبرى أعجز معها عن النوم. كانت ماما تهدهدني أحياناً بين ذراعيها، فأغفو على صوت نيران المدفأة.

أذكر أني رأيت أمي تبكي. سألتها عمّا يُحزنها، فقالت إنها تبكي من شدة سعادتها في امتلاكها عائلة حقيقية.

وبما أن أبي كان يعمل نهاراً كاملاً بالمناوبة أحياناً، غالباً ما اصطحبتنا أمي، في أيام النزهات، إلى أماكنَ كمنتزه "غولدن غايت" في سان فرانسيسكو. وفيما كنا نتجول المنتزه، كانت أمي تشرح لنا عن اختلاف المناطق عن بعضها بعضاً، وعما يخالجها من حَسد إزاء ما تراه من أزهار جميلة. وتعوّدنا أن نختم الزيارة بالذهاب إلى "حوض ستاينهارت"، وهو الحوض المائي في المنتزه. كنا، أخواي وأنا، نصعد السلم بسرعة كبيرة ونقتحم الأبواب الضخمة، فنغتبط بانحنائنا فوق سياج العشب الذي يتخذ شكل حصان البحر، فننظر إلى عمق البركة، وإلى أبعد ما استطعنا رؤيته عند مسقط الشلال، وهما يشكلان موطن التماسيح والسلاحف الكبيرة.

ولمّا كنت طفلاً، كان هذا المكان مكاني المفضّل في المنتزه كله. وذات مرة، انتابني الخوف عندما توقّعت أن تنزلق قدمي عبر السياج وأسقط في البركة. لا بُدّ أن ماما استشعرت خوفي من دون أن أخبرها به، فنظرت إليّ وأمسكت بيدي برقّة كبيرة لم أشعر بها من قبل.

كان الربيع يوازي النُزهات بالنسبة لنا. فتقوم ماما بإعداد الدجاج المقلي والسلطات والسندويشات والكثير من الحلويات عشية يوم النزهة. ثم تنطلق العائلة باكراً في الصباح التالي إلى منتزه "جونيبيرو سرّا". وما إن نصل، حتّى نروح، أخواي وأنا، نركض على العشب ونركب الأراجيح مرتفعين إلى أعلى فأعلى. وكنا نغامر أحياناً مستكشفين بقاعاً قاحلة في المنتزه، فتنزعنا ماما من سلوانا عندما يحين وقت الغداء. كنا نلتهم الطعام، بالكاد نتذّوق طعمه قبل

أن نشنَ هجوماً على مناطق غير مستكشفة سعياً وراء مغامرة شيّقة. كان والدانا يشعران بالفرح لاستلقائهما جنباً إلى جنب على بطانية، ويشاهداننا نلعب.

أما الفرحة العارمة، فكانت باستعداد العائلة لقضاء العطلة الصيفية. ولطالما كانت ماما العقل المدبّر وراء هذه الرحلات، تخطط لأدق التفاصيل وتتفاخر بنفسها لتكامُل النشاطات التي تحضّرها. في العادة، كنا نسافر إلى "بورتولا" أو إلى "ميموريال بارك"، ونخيّم في خيمة خضراء ضخمة لحوالى الأسبوع. لكن، متى أقلّنا أبي شمالاً نحو "غولدن غايت بريدج"، عَرَفتُ للتو أننا ذاهبون إلى مكاني المفضّل في العالم أجمع، إلى "النهر الروسي".

ذات مرة، عندما كنت في الحضانة، قمنا برحلة إلى هذا النهر، لا أزال أذكرها أكثر من أي رحلة أخرى إليه. آنذاك، وفي آخر يوم من المدرسة، طلبت لي ماما الإذن بالخروج نصف ساعة قبل انتهاء الدوام. خرجتُ، فأطلق أبي نفير السيارة، عندها، أسرعتُ إليه منطلقاً على التلّة الصغيرة كالصاروخ متجّهاً نحو السيارة. شعرتُ بالحماسة يومها لأنني عرفتُ أين كنا ذاهبين. وفي طريقنا، تملّكتني الدهشة لما رأيته من كروم العنب التي بدت لامتناهية. وعندما دخلنا بلدة "غيرنيفيل" الساكنة، أنزلت زجاج النافذة كي أستنشق الهواء الناعم من الأشجار الحمراء.

كان كل يوم بمثابة مغامرة جديدة. كنا، أخواي وأنا، نتسلّق جذوع الأشجار القديمة المحترقة، مُنتعلين أحذية نمشي بها بخطو ثقيل له صوت أو نسبح على شاطىء جونسون. كان قضاء يوم على

الشاطىء حدثاً شيّقاً بذاته؛ إذ نغادر الكوخ عند التاسعة ونرجع بعد الثالثة.

علّمتني ماما السباحة في حفرة في النهر. وذاك الصيف، علّمتني كيفية السباحة على الظهر، وبدت فخورة جداً عندما تمكّنت أخيراً من القيام بذلك.

بدا كل يوم وكأن سحر ساحر قد حلّ عليه. وذات ليلة، بعد تناول العشاء، اصطحبنا بابا وماما لمشاهدة غروب الشمس. أمسكنا بأيدي بعضنا بعضاً، وتسلّلنا مروراً بكوخ السيد "باركر" للوصول إلى النهر. كانت صفحة مياه النهر الخضراء رقيقة كالزجاج، وراحت بعض العصافير تتبادل التعنيف. وداعب شعري نسيم لطيف. جلسنا نتأمّل الشمس لا نتفوه بكلمة. شمس أشبه بكرة نارية أخذت تتوارى خلف الأشجار الشامخة، موشّحة الأفق بالأزرق والأرجواني. شعرت بأحدهم يُعانقني من كتفي، ظننتُ أنه بابا، فاستدرتُ، عندها اختلج بي فخر كبير لرؤية أمي تضمّني إليها بشدّة. كنت أتحسس قلبها ينبض. لم أشعر يوماً بمثل هذا الأمان والدفء كما في تلك اللحظة عند النهر الروسي.

الفصل الثالث

3

ولد شرير

تغيّرت علاقة أمي بي بشكل جذري عنيف، من التأديب إلى العقاب الذي راح يخرج عن سيطرتها. ففي بعض الأحيان، كانت تقسو عليّ، لدرجة أنني أعجزُ عن الزحف لإنقاذ حياتي حتى.

وبالنسبة لطفلٍ صغير مثلي، ربما كان صوتي حاداً/عالياً قياساً لأولاد آخرين من عمري. وكان لي من سوء الحظ ما يورطني بتسبيب الأذى، مع أنه غالباً ما ارتكبنا، أخواي وأنا، "الجريمة" ذاتها. في البداية، كانت أمي تُقصيني إلى الزاوية في غرفة النوم. بدأتُ أخاف منها، وأخافها للغاية. لم أطلب منها يوماً أن تدعني أخرج. كنت أقبعُ في الزاوية، وأنتظر ريثما يدخل أحد أخويّ الغرفة، فأطلب منه أن يسألها إن كان بإمكان "دايفيد" أن يخرج الآن ليلعب.

في تلك الآونة، تغيّر سلوك أمي جذرياً. فمتى ذهب أبي إلى العمل، تمضي النهار بأكمله مستلقية على الأريكة بثوب الحمام تشاهد التلفزيون. وما نهضت من مكانها إلاّ لدخول الحمام أو لإحضار بعض فضلات الطعام المسخّن. ومتى

صاحت بنا، تحول صوتها من نبرة الأم المُربّية إلى نبرة الساحرة الشريرة. فبات صوتها يبعث الارتجاف في جسدي. وحتى عندما كانت تصرخ على أخويّ ككلب ينبح، كنت ألوذ بالفرار وأختبئ في غرفتي، راجياً أن تستلقي مجدّداً على الأريكة، وترجع إلى برنامجها التلفزيوني. وبعد فترة، بتُّ أحدّد ماهية النهار الذي ينتظرني بواسطة ما ترتديه أمي من أثواب. فأتنفّس الصعداء متى خرجت متبرّجة، ومرتدية ثوباً جميلاً إذ كانت تبتسم على الدوام في مثل تلك الأيام.

وعندما قرّرت أمي أن "عقاب الزاوية"، لم يعُد فعّالاً، تغيّر عقابي إلى "عقاب المرآة".

في البداية، كانت تجازيني بهذا النوع من العقاب من دون سابق إنذار: تجذبني فجأة، ثم تسحق وجهي على المرآة، فتمسح دموعي المنسكبة على وجنتي بالزجاج العاكس الزَلِق. وتأمرني أن أردّد، مراراً وتكراراً: "أنا ولدٌ شرير! أنا ولدٌ شرير! أنا ولدٌ شرير!". ثم تُجبرني على الوقوف مُلتصقاً بالمرآة محدّقاً إلى نفسي. فأقف هناك، يداي إلى جنبيّ، وأروح أتهادى جيئة وذهاباً، وأرتعب من لحظة عرض الإعلانات على الشاشة لعلمي أن أمي ستتوجه بخطاها المتثاقلة نحو الردهة لترى إذا ما زال وجهي ملتصقاً بالمرآة، وتقول لي إنني لَولد مقزز. ومتى دخل أخواي الغرفة وأنا ملتصق بالمرآة، كانا ينظران إليّ، يرفعان كتفيهما بلا اكتراث، ويكملان اللعب وكأنني غير موجود. انتابتني الغيرة في البداية لكنني سرعان ما أيقنت أنهما يحاولان إنقاذ أنفسهما وحسب.

وعند ذهاب أبي إلى العمل، تعوّدت أمي أن تصيح بنا وتجبرنا على

البحث في أرجاء المنزل عن شيء ما قد أضاعته. كنا نشرع في البحث صباحاً لننتهيَ بعد ساعات طوال. ثم، كانت تبعث بي إلى المرآب، وهو يشكّل الجزء السفلي من المنزل أي القبو. وحتى بوجودي هناك، كنتُ أرتجف لمجرد سماعها تصرخ على أحد أخويّ.

امتدت عمليات البحث أشهراً عديدة. وفي نهاية المطاف كنت الوحيد المشار عليه بالبحث عن أغراضها. وذات مرّة، نسيتُ ما كنت أبحث عنه؛ تقدّمتُ منها بحياء لأسألها عن أي شيء أبحثُ، فصفعتني على وجهي بقوة وهي ممددة على الأريكة، حتى إنها لم تتوقف عن مشاهدة برنامجها التلفزيوني! سال الدم من أنفي ورُحتُ أبكي. تناولت أمي منديلاً ورقياً من على طاولتها، مزّقت قطعة منه وأقحمتها في أنفي، ثم صرخت بي: "أنتَ تعلم جيداً ما الذي تبحث عنه! انصرِف الآن وجِده!".

عُدت مسرعاً إلى القبو حريصاً على إحداث ما يكفي من الضجة فتقتنع أمي بأنني أنصاع لأوامرها وأنفّذها بهمّة كبرى. وعندما باتت عبارة "جِدْ الشيء" مألوفة لي، بدأتُ أتوهّم أني وجدتُ غرضها الضائع، أتصوّر نفسي صاعداً السلالم حاملاً ذاك الشيء، فتُوافيني أمي بالعناق والقُبل. احتوت أوهامي أيضاً على صورة للعائلة تعيش بسعادة إلى الأبد. إلاّ أنني لم أجد تلك الأغراض الضائعة يوماً، فحرِصَت أمي على ألاّ أنسى أبداً أنني خاسر غير كفوء.

وكصبي صغير، أدركت أن سلوك أمي يتبدل تماماً متى رجع أبي من العمل. هي تبدو أكثر ارتياحاً عندما تسرّح شعرها وترتدي ثياباً جميلة. كنت أحبّذ وجود أبي في المنزل. فلا أتعرّض للضرب

أو لِعقاب المرآة، ولا تُجبرني أمي على البحث مطوّلاً عن أغراضها الضائعة. أضحى والدي حاميّ. فمتى ذهب إلى المرآب للعمل على مشروعٍ ما، كنت ألحق به. وإن جلس على كُرسيه المفضّل يقرأ الصحيفة، كنت أجلس قرب قدميه. وفي الأمسيات، بعد رفع الطعام عن المائدة، كان أبي يغسل الأطباق، وأعمل أنا على تجفيفها. أدركتُ بأنني لن أصاب بأي أذى إنْ بقيتُ إلى جانبه.

لكن ذات يوم، قبل ذهابه إلى العمل، خاب أملي بصدمة كبرى. ودّع أبي رون وستان، ثم جثا على ركبتيه، أمسك كتفيّ بشدّة وقال لي: "كُن ولداً عاقلاً". وقفتْ أمي خلفه، مكتّفة الذراعين، وارتسمت على محيّاها ابتسامة صارمة. نظرتُ إلى عينيّ والدي وأيقنتُ، في تلك اللحظة بالذات، إنني "ولد شرير" في نظره؛ وإذا ببرد جليدي ينسلُ في جسدي من الرأس إلى أخمص القدمين. أردت أن أعانقه ولا أطلق سراحه أبداً، لكن، وقبل أن أتمكن من معانقته، نهض، أدار لي ظهره وخرج من الباب من دون التفوه بكلمة أخرى.

بعد تحذير أبي لي، هَدأت الأمور بين أمي وبيني لفترة وجيزة. وكلما عاد أبي إلى المنزل، كنا نلعب، أخواي وأنا، إما في غرفتنا أو خارجاً حتى الثالثة عصراً، فتدير أمي التلفزيون لنُشاهد الرسوم المتحركة. كانت الثالثة "الساعة الحلوة" بالنسبة لوالديّ.

كنت أشاهدهما يرقصان في المطبخ على أنغام موسيقى الراديو. كانا يبدوان في غاية السعادة. فظننتُ أنه بوسعي طي الأوقات السيئة. كنتُ مخطئاً. فقد كان السوء في أوله.

مرّ شهر أو شهران؛ كان يوم الأحد وقد ذهب أبي إلى العمل.

كنا، أخواي وأنا، نلعب في الغرفة عندما سمعنا وقع خطوات أمي تُسرع نحو الردهة، وراحت تنادينا. هرع رون وستان إلى غرفة الجلوس ليحتميا فيها، في حين جلستُ على الكرسي رافعاً كلتا يدي إلى أعلى. دخلت أمي الغرفة، وأخذت تدنو مني وتدنو، فرُحت أدفع بالكرسي إلى الوراء حتى لامس رأسي الحائط. كانت عينا أمي حمراوين تلمعان، وفاحت من فمها رائحة الثمالة. أغلقتُ عينيّ فيما انهالت عليّ اللكمات واحدة تلو الأخرى ورحت أترجح من ناحية لناحية. حاولتُ حماية وجهي بيدي، لكن كانت أمي تنتزعهما عنه بكل بساطة. ثم قرصتني، وشعرتُ بأثر القَرص يدوم دهراً. وأخيراً، رفعتُ ذراعي اليُسرى لأُغطي وجهي، فتشبّثت بها، لكنها فقدت توازنها، وارتدّت إلى الوراء خطوة. وفيما جسدها يلوح ليستعيد توازنه، سمعتُ صوتاً أشبه بفرقعة وشعرتُ بألم حادٍ في كتفي وذراعي. علِمتُ من خلال نظرتها الجاحظة المروعة أنها سمعت الصوت هي أيضاً. عندئذ، أفلتت ذراعي، واستدارت مبتعدة وكأن شيئاً لم يحصل. هززتُ ذراعي وأحسستُ بألم مبرّح ينتابني. وبعد قليل، استدعتني أمي لتناول العشاء قبل أن أتمكن من التحقق مما حدَثَ لذراعي.

تهالكتُ على الأريكة لآكل صينية الطعام. مددت يدي لأشرب كوب الحليب، فلم تتجاوب ذراعي. ارتجفتْ أصابعي، وشعرتُ بوخز في ذراعي. نظرتُ إلى أمي أستغيثها بعينيّ. تجاهلتني. أدركت أن بي خطباً ما لكنني خشيتُ التفوه بأي كلمة. جلستُ في مكاني أُحدّق إلى صينية الطعام. وأخيراً، صرفتني أمي لأخلد إلى

النوم باكراً وطلبت مني النوم في السرير العُلوي. مع أنني لا أفعل هذا في العادة، إذ أنام على الدوام في السرير السُفلي. لم يغمض لي جفن الليل بطوله. نمت قليلاً مع طلوع الفجر وأنا أسند ذراعي اليسرى بحذر فوق اليمنى.

لم أكن قد نِمتُ مطوّلاً عندما أتت أمي لتوقظني، شارحةً لي أنني سقطتُ من السرير العلوي ليلاً. وفي طريقها إلى المستشفى، بدت قلقة للغاية بشأن ما حلّ بي. وأطلعتِ الطبيب على حادثة سقوطي من السرير العلوي، فتفرّستُ في عينيه وعلمتُ بأنه لا يصدقها وبأن الإصابة لم تنجم عن مجرد حادثة.

ومجدداً، بقيتُ متكتّماً. أما في المنزل، فاختلقت أمي قصة أكثر إثارة لتحكيها لأبي إذ تضمّنت روايتها المُنقّحة جهودها في التقاطي قبل أن أرتطم بالأرض.

تهالكتُ في حضنِ أمي أُصغي إليها تكذب على أبي، حينئذ أيقنتُ أنها مريضة. وأبقيتُ على الحادثة طي الكتمان لشعوري بالخوف. علمتُ بأن الحادثة التالية ستكون أسوأ إن أطلعتُ أحدهم على الأولى.

كانت المدرسة ملاذي الوحيد. فأغتبط بابتعادي عن أمي. وكنت شديد الحماسة عند استراحة الغداء إذ أنزل الملعب المعبّد بحثاً عن أمور جديدة أقوم بها، وفيها كل المغامرة. سَهُلَ عليّ الحصول على أصدقاء. وكان تواجدي في المدرسة فرحة كبرى.

ذات مرة، في نهاية الربيع، عُدت من المدرسة فأمسكتْ أمي بي، رمتني في غرفتها وراحت تصرخ عليّ تقول إنه يجب إعادتي إلى الصف الأول لأنني ولد شرير. لم أعِ عمّا كانت تتحدّث! فكل أوراقي

تحمل رسم "الوجه الضحوك"، وحصتي منها تفوق ما يحصل عليه الآخرون. كما أنني أُطيع معلّمتي وأشعر بأنها تحبني هي أيضاً. غير أن أمي ظلّت تصيح قائلة إنني عار على العائلة ويتوجب مُعاقبتي بقسوة. فقرّرتْ حرماني من مشاهدة التلفزيون للأبد، ومن تناول العشاء على حدٍ سواء، وأجبرتني على فعل أي عمل منزلي قد يخطر على بالها. ثمّ كانت ترسلني إلى المرآب بعد أن تضربني، إلى أن تستدعيني أخيراً للخلود إلى الفراش.

ذهبنا إلى التخييم ذاك الصيف، وفي طريقنا إلى المخيم، أُنزلتُ، من دون سابق إنذار، في منزل عمتي "جوزيه". لم يُطلعْني أحد على الأمر، ولم أدرك ما كان يجري. انطلقتْ السيارة، وتركوني وحيداً، فشعرتُ بأنني منبوذ بينهم. اعتراني حزن عميق وفراغ رهيب. حاولت الفرار من منزل عمتي، أردتُ أن أكون مع عائلتي، ولسبب مبهم أن أكون مع أمي بالذات. لم أستطع الابتعاد كثيراً. أخبرتْ عمتي أمي بمحاولتي على الهروب. كان أبي يعمل بالمناوبة يومها وسيرجع في الغد، فدفعتُ ثمن خطيئتي إذن. راحت أمي تصفعني وتقرصني وتركلني إلى أن سقطتُ أرضاً. حاولتُ إخبارها بأنني هربت لأكون معها وحسب، مع العائلة، لكنها أبَتْ أن تدعني أتكلم. حاولتُ ثانية، غير أنها أسرعت نحو الحمام، تناولت قطعة صابون وكَمّت فمي بها. إذ ذاك، منعتني من التكلّم إلا بإذن منها.

كانت العودة إلى الصف الأول مُتعة حقّة. عرفتُ كل الدروس الأولية فلقّبوني "عبقري" الصف. وصرتُ في صف ستان لأنهم رسّبوني. عند استراحة الغداء، كنتُ ألعب معه ومع رِفاقي في الصف

الأول. كنا صديقين حميمين في المدرسة وعلِمنا كلانا أنني منبوذ في المنزل.

وذات يوم، هرعتُ راكضاً إلى المدرسة لأتباهى بحصولي على علامة جيدة. فإذا بأمي تقذف بي في غرفتها وتروح تصرخ بشأن رسالة ما تلقّتها من القطب الشمالي. زَعَمَتْ أن الرسالة تُفيد بأنني "ولد شرير" وبأن بابا نويل لن يُحضر لي الهدايا في الميلاد. كانت أمي تثور وتثور، تُردّد كلاماً عن إلحاقي العار بالعائلة. وقفتُ أمامها مندهشاً، واستمرت تُضايقني بلا رحمة. أحسستُ وكأنني أحيا كابوساً من نسيج خيال أمي وتمتمتُ بصلاتي راجياً أن تستيقظ بطريقة ما.

تلك السنة، حصلتُ على هديتين اثنتين فقط قبل الميلاد، وضعتا تحت الشجرة وقد أرسلهما أقرباء من غير أفراد عائلتي. حلّ يوم الميلاد، فتجرّأ ستان وسأل أمي عن سبب حصولي على لوحتين فقط. فانتهرته قائلة: "لا يُحضر بابا نويل الألعاب إلاّ للفتيان والفتيات الصالحين!". اختلستُ نظرة من ستان، ظهر الحزن في عينيه وعلمتُ أنه يعرف ما تؤديه عليّ أمي من ألعاب غريبة. وبما أنني كنتُ مُعاقباً، اضطررتُ، يوم الميلاد، لتبديل ملابسي وارتداء ملابس التنظيف للقيام بأعمالي المنزلية المعتادة.

وفيما كنت أنظف الحمام، تناهى إلى سمعي ما يدور من شجار بين أمي وأبي. غَضبتْ منه لأنه ابتاع لي اللوحتين "من دون علمها". وأخبرَتْهُ أن تأديب "الولد" مسؤوليتها وحدها، وأنه، بشرائه لي الهدايا، قد أضعَفَ سلطتها. وكلما جادلها أبي، استشاطت غيظاً أكثر. عرفتُ أنه خسر المعركة وأنني أُمسي أكثر عزلة يوماً بعد يوم.

مرّت عدة أشهر، أصبحت أمي قائدة الجراميز في الكشاف. كانت تعامل الأولاد الآخرين معاملة الملوك متى أتوا منزلنا حتى إنّ أحدهم أقرّ لي كم يتمنى الأولاد الباقون لو يحظون بأمٍ كأمي أنا.

لم أُجبهُ. لكني تساءلتُ في سرّي عمّا سيكون رأيهم إن عرفوا حقيقتها.

ظلّت أمي قائدة الجراميز لبضعة أشهر فقط. وتنفّستُ الصعداء عندما صرفت هذه المهمة عن عاتقها. فذلك يعني أنه بوسعي الذهاب إلى منازل الآخرين من أجل اجتماع الأربعاء.

وفي أحد أيام الأربعاء، عُدت من المدرسة وصعدتُ أُبدّل ثيابي مرتدياً زي الكشاف الأزرق والذهبي. كنت وأمي وحدنا في المنزل. وأيقنتُ من خلال نظراتها أنها تستشيط غيظاً. فأمسكتني، سحقت وجهي بالمرآة، ثم جذبتني من ذراعي وجرّتني نحو السيارة.

وفي طريقنا إلى منزل قائدة الجراميز، أخبرتني أمي بما ستفعله بي عند بلوغنا المكان. فوثبتُ إلى أقصى الزاوية في المقعد الأمامي من السيارة. لكنّ هروبي باء بالفشل. أدركتني حيثُ أنا، جذبت ذقني رافعة رأسي إلى مستوى رأسها. احتقنت عيناها بحُمرة الدم وبدا صوتها كمن تملّكه إبليس. وعندما وصلنا منزل قائدة الجراميز، ركضتُ نحو الباب باكياً. وقلت لها، بصوت يئنّ، بأنني كنتُ ولداً شريراً، لذا لن أتمكن من المشاركة في الاجتماع. فابتسمت لي السيدة ابتسامة رقيقة وقالت إنها تودّ أن أحضر اجتماع الأسبوع المقبل. كانت تلك آخر مرة أراها.

وما إن بلغنا منزلنا حتى أمرتني أمي بخلع ملابسي والوقوف

بجانب الفرن في المطبخ. فارتعد جسدي لمزيج من الخوف والحرج. وإذا بها تفشي لي عن جريمتي النكراء: غالباً ما كانت تُقلّني إلى المدرسة لمجرد أن تراقبني ألهو مع أخويّ أثناء استراحة الغداء! وزعمتْ أنها رأتني ألعب على العشب ذاك اليوم، وهذا يدخل في نطاق الممنوعات في قانونها. فأجبتُها على الفور بأنني لم ألعب يوماً على العشب. عرفتُ أنها اختلقت هذا الخطأ بشكلٍ من الأشكال. وكانت مكافأتي على إطاعة أوامر أمي وقول الحقيقة أنْ قرصتني قرصة مؤلمة على وجنتي.

ثم دنت أمي مني وأشعلت نار الفرن. وأخبرتني أنها قرأت مقالاً عن أمٍ أجبرت ابنها على الجلوس فوق فرن مشتعل. حلّ بي الخوف على الفور. شُلّ عقلي عن العمل وارتجفت ساقاي. وَددتُ لو أختفي! أغمضتُ جفنيّ وتمنيت أن ترحل أمي. وتعطّل عقلي كلياً عندما أحكمتْ أمي قبضتها على يدي كما لو أنها قبضة حديدية. وقالت متهكّمة: "حولتَ حياتي إلى جحيم حي! وقد حان دوري الآن لأريك ما هو الجحيم!". وبينما كانت لا تزال ذراعي في قبضتها، مرّرتها فوق الشعلة الملتهبة. شعرتُ وكأن بشرتي تنفجر بفعل الحرارة. وبلغتْ أنفي رائحة الشعر المحترق تفوح من ساعدي. قاومت وقاومت لكني عجزتُ عن جعلها تُفلت يدي إلى أن سقطتُ أرضاً على ركبتي ويديّ ورُحت أنفخ الهواء البارد على ساعدي. فأردفتْ بنبرة ازدراء: "من المؤسف أن أبيك السكّير ليس هنا ليُنقذك".

ثم أمرتني أن أقف وأجلس على الفرن فوق اللهب كي تتمكن من رؤيتي أحترق. رفضتُ أن أطيعها، بكيتُ وتوسّلتُ. واعتراني خوف

شديد لدرجة أنني رُحت أرفس الأرض احتجاجاً. لكنها ظلّت تضايقني للجلوس على الفرن. كنتُ أُراقب اللهب وأصلّي أن ينفد الغاز. وفجأة، أدركتُ أنني كلما عاندتُ تنفيذ أمرها، زادت فرصي في البقاء حيّاً. كنت على علم بأن أخي رون سيرجع قريباً من اجتماع الكشاف، وبأن أمي لا تتصرف مُطلقاً على هذا النحو الغريب متى وجد أحدهم في المنزل. لا بدّ لي إذنْ من كسب الوقت للبقاء حياً. فنظرتُ خلسة إلى الساعة خلفي. بدا العقرب يتوانى في الحركة. فبدأتُ أطرح عليها أسئلة مصدراً أنيناً كي أُفقدها صفاء الذهن، ما زادها غضباً على غضب، فانهالت عليّ ضرباً على رأسي وصدري. وأيقنت مع كل لكمة أنني فزتُ! فكل شيء أفضل من الاحتراق على الفرن.

وأخيراً، سمعتُ صوت الباب يُفتح. كان رون. انشرح صدري ارتياحاً. علَت الزُرقة وجه أمي، وعرفت أنها خسرت المعركة. تسمّرت في مكانها للحظة من الزمن. فانتهزتُ تلك اللحظة لألتقط ثيابي وأُسرع إلى المرآب حيث ارتديتها بسرعة. وقفتُ إزاء الجدار أبكي، حتى أدركتُ أنني هزمتها. فقد كسبتُ دقائق ثمينة معدودة؛ سخّرتُ عقلي بهدف البقاء حياً، وفزتُ عليها للمرة الأولى!

وقفتُ وحيداً في المرآب الرطب والمظلم، وأيقنتُ للمرة الأولى بأنني قادر على البقاء حياً. وقرّرتُ أن أستخدم كل وسيلة قد تتبادر إلى ذهني كي أهزم أمي أو أعوّق عليها تنفيذ أعمالها المهووسة.

حينئذ، قطعتُ على نفسي وعداً: لن أمنح تلك الفاجرة متعة سماعي أتوسّلها كي تتوقف عن ضربي. لا، ليس بعد اليوم.

لفّ المرآب الصقيع. فارتجفتُ من شعوري بغيظ فاتر غير ودّي، وخوف مفرط. استعنتُ بلساني لألعق الحرق وألطّف ألم ساعدي. أردتُ أن أصرخ من الألم، لكنّي أبيتُ أن أمنح أمي مُتعة سماعي أبكي. وقفتُ والأنفة تتملّكني. كنت أسمعها تتحدّث إلى رون في الطابق العلوي، تخبره كم أنها تفتخر به، وأنها لن تُضطر للقلق بشأنه، لأنه لن يُمسي ولداً شريراً مثل... دايفيد.

الفصل الرابع

4

الكفاح للحصول على الطعام

بعد حادث الاحتراق ذاك الصيف، أضحت المدرسة ملاذي الوحيد. وأصبحت معاملتي مع أمي، في ما خلا أثناء رحلات الصيد القصيرة، بطريقة "الضرب والهرب" - فكلّما ضربتني، أسرعتُ راكضاً إلى المرآب القبو.

أقبلَ أيلول، فعرفتُ النعيم بالعودة إلى المدرسة؛ وحصلتُ على علبة طعام جديدة وثياب نظيفة، بعد أن بَهُتَ لونها مع حلول تشرين الأول، وكانت قد تمزّقت وفاحت منها رائحة نتنة، إذ أجبرتني أمّي على ارتدائها أسبوعاً بعد أسبوع. وبالكاد تكبّدتُ عناء تغطية أثر الكدمات على وجهي وذراعيّ. وكنتُ كلّما سألني أحدهم عنها، أُجيب بالأعذار الجاهزة التي أقحمتها أمّي في رأسي.

آنذاك، كانت أمي "تتناسى" تقديم العشاء لي. ولم أحظَ بأفضل من هذا عند الفطور. فكان باستطاعتي، في بعض أيّام السعد، تناول فضلات الحبوب التي تركها أخواي، شرط أن أُنهي كلّ أعمالي المنزليّة قبل الذهاب إلى المدرسة.

كنتُ أشعر بالجوع الشديد ليلاً، فيصدر من معدتي صوتاً أشبه بحجرجة دب مغتاظ، فأظلّ مستيقظاً، أستغرقُ في فكرة تناول الطعام. وأقول: "ربّما سأحصل على طعام العشاء غداً"، لأنام بعد ساعاتٍ عديدة أتوهّم أموراً عن الطعام.

كنت أحلمُ بالهامبرغر بالدرجة الأولى، واحدة عملاقة مع كلّ محتوياتها الإضافيّة. وكنتُ في الحُلم أُمسك بغنيمتي وأقرّبها إلى شفتيّ. تصوّرت كلّ إنش منها. تصوّرتُ اللحم يتقطّر، وشرائح الجبنة تزبد فوقها، والتوابل تسيل من بين قطع البندورة والخسّ. فقرّبتُ الهامبرغر إلى وجهي، وفتحت فمي لألتهمها، وإذا بي لا أحصل على شيء! كنت أحاول ثانية وثالثة إلا أنني لم أذُق طعم قضمة واحدة من الهامبرغر الخياليّة، رغم كل ما بذلته من جهد في كفاحي.

وكنتُ أستيقظ بعد لحظات لأستشعر بمعدتي أكثر خواءً من قبل. لم أتمكّن قطّ من إشباع جوعي؛ ولا في أحلامي حتّى.

ثمّ سرعان ما دفعتني أحلامي إلى سرقة الطعام من المدرسة. كانت معدتي تتقبض جرّاء مزيج من الخوف والترقّب. الخوف نتيجة معرفتي بأنّهم سيضبطوني أسرق في أي لحظة، ويرافقه ترقّب الحصول على ما آكله في غضون ثوانٍ معدودة.

تعوّدتُ سرقة الطعام قبل بدء الصفوف، أي عند وجود باقي أترابي في الخارج يلعبون. فأتسلّل على طول الحائط خارج صفّ التسجيل، أضع علبة الطعام إلى جانب علبة أخرى، وأجثو على ركبتيّ لئلا يراني أحدهم أسرق طعامه. نفّذتُ العمليّة بسهولة في

البداية، غير أنّه، بعد عدّة أيّام، اكتشف بعض الطلاب اختفاء الحلوى من علب طعامهم. فبدأ أصدقائي يُكنّون لي الضغينة بعد فترة وجيزة، وأخبر الأستاذ المدير بشأني، ثم أطلع المدير أمّي على ذلك. فبات الكفاح للحصول على الطعام أشبه بحلقة فارغة: كان المدير يخبر أمّي، وأمّي تضربني، فيتضاءل مقدار ما أحصل عليه من طعام في المنزل.

أبَت أمّي أن تُطعمني في عُطل نهاية الأسبوع كعقابٍ لي على ارتكابي السرقة. فأروح أُخطّط، ليل الأحد، للسرقة بطريقة مضمونة لا يضبطني أحد إثرها، فيسيلُ لعابي من فمي لمجرّد التفكير؛ إذ قضت إحدى المخطّطات بسرقة طعام أولاد الصفّ الأوّل لأنهم لا يعرفونني. وما إن يحلّ صباح الاثنين، حتّى أنزل من سيّارة أمّي وأُسرع نحو الصف الأوّل، أنقّب عن الطعام في العلب. نجحتُ في ذلك لفترة وجيزة ولم يستغرق المدير وقتاً طويلاً لإلباس تهمة السرقة بي مجدداً.

أمّا في المنزل، فاستمرّ عقابي في حرماني من الطعام ومعاملتي بعنف. ولم أعد أعتبر فرداً من العائلة لكل الغايات الملموسة. كنتُ موجوداً، غير أنّهم كادوا ينكرونني. حتّى إنّ أمّي توقّفت عن مناداتي باسمي، واستبدلته بعبارة "يا ولد" وحسب. حرمتني من تناول الوجبات مع العائلة، ومن اللعب مع إخوتي ومشاهدة التلفزيون. سجنتني في المنزل، ومنعتني من النظر أو التكلّم إلى أي إنسان. كنتُ أرجع من المدرسة لأؤدّي على الفور الأعمال المنزليّة المتعدّدة التي تُمليها أمي عليّ. وما إن أنتهي حتّى أذهب من فوري إلى القبو، وأمكث فيه إلى أن تستدعيني لأرفع الأطباق عن طاولة العشاء وأغسلها. وأوضحت لي

أنّها إن ضبطتْني جالساً أو ممدّداً على الأرض في القبو، فالعواقب ستكونُ وخيمة عليّ. وهكذا، بتّ عبد أمّي.

كان أبي رجائي الوحيد، فعَل ما بوسعه لإعطائي الطعام خلسة. وحاول إقناع أمي بتغيير رأيها وإطعامي. حتّى إنّه سعى إلى إجراء الصفقات معها، يعدها بكلّ ما ترغب به في العالم أجمع. لكنّ محاولاته باءت بالفشل. كانت أمّي صلبة كالصخر، وأمست أشبه بوحش.

وأيقنتُ أنّ جهود أبي لمساعدتي، أدّت إلى توتّر علاقته بأمّي. وسرعان ما بدأا يتشاجران عند منتصف الليل. فتتناهى إلى سمعي أصواتهما تتعالى لدرجة تجرّح الآذان. ويكون كلاهما ثملاً عندها. فتروح أمي تتفوّه بكلّ العبارات السفيهة التي قد تخطر على البال. وقلّما يهمّ السبب الذي أثار الشجار، فسرعان ما أمسي موضوع معركتهما. كنت أدرك أنّ أبي يحاول مساعدتي، إلا إنّني بقيت أرتعد خوفاً في سريري لعلمي أنّه سيخرج مغلوباً على أمره في نهاية المطاف، وأنّ العواقب ستزداد سوءاً حيالي في اليوم التالي.

عندما كانا يتشاجران في البداية، تعوّدت أمّي أن تنطلق بسيّارتها مغتاظة، فتحدث العجلات صريراً قويّاً. ثم ترجع إلى المنزل في غضون أقلّ من ساعة. وفي اليوم التالي، يتصرفان وكأنّ شيئا لم يحدث! كنت أشكر والدي متى اختلق عذراً ونزل إلى القبو لإعطائي كسرة خبز خلسة. ولطالما قطع عليّ وعداً بالاستمرار في محاولاته.

ثمّ أخذ سلوك أبي يتغيّر بتكرُّر شجاراته مع أمّي. فبعد الشجار، غالباً ما كان يحزم أمتعته في كيس صغير وينطلق إلى عمله في منتصف الليل. وما أن يرحل حتّى تجذبني أمّي من السرير بقوّة

وتتوجّه بي نحو المطبخ. وأقف أمامها أرتجف، في حين تروح تقذف بي من ناحية لأخرى. لكنني كنت أعتمد إحدى تقنيّاتي للمقاومة، فأتمدّد على الأرض مُدعياً عجزي عن النهوض. لم يكن مخططي يَدوم طويلاً، إذ تجذبني أمّي من أذنيّ وتصرخ في وجهي لعدّة دقائق متواصلة.

وفي مثل تلك الأمسيات، كانت تُردد على مسمعي الأمر ذاته: أنا سبب مشاكلها مع أبي. وغالبا ما كنت أشعر بتعب جسدي فترتجف ساقاي. كان التحديق إلى الأرض خلاصي الوحيد، فأروح أرجو الله أن تُهدئ أمّي من غيظها.

آنذاك، كنت في الصفّ الثاني، كانت أمّي حاملاً بطفلها الرابع. أخذت معلّمتي الآنسة موس تهتمّ بي اهتماماً خاصّاً. شرعَت في استجوابي عن عدم انتباهي إلى الدروس. كذبتُ عليها قائلاً إنّني بقيت مستيقظاً لساعةٍ متأخّرة من الليل أُشاهد التلفزيون. لم تكن أكاذيبي مقنعة، فاستمرّت تستطلع عن حالة ثيابي والكدمات على جسدي أيضاً. ولطالما لقّنتني أمّي ما عليّ قوله حول مظهري، فكنت أتلوه للمعلّمة بكلّ بساطة.

إنقضت الأشهر وغدَت الآنسة موس أكثر إصراراً. وذات يوم، أبلَغت مدير المدرسة بقلقها.

كان يعرفني خير المعرفة على أنّني سارق الطعام، فاستدعى أمّي. عُدنا إلى المنزل ذاك اليوم، وإذا بالوضع ينفجر كما لو أنّ أحدهم ألقى قنبلة نوويّة. فقد أخذ العنف من أمّي كلّ مأخذ. إغتاظت لأنّ أحد الأساتذة "الهيبيين" اتّهمها بإساءة معاملة طفلها. وقالت إنّ

عليها الذهاب لمقابلة المدير في الغد بغية تبرير الاتّهامات الزائفة الموجّهة إليها. وفي النهاية، كان أنفي قد نزف مرّتين وفقدتُ سناً من أسناني.

عدت من المدرسة عصر اليوم التالي، ورأيت أمّي تبتسم كما لو أنّها ربحت ورقة يانصيب من فئة المليون دولار. وأخبرتني كيف استعدّت للقاء المدير وهي تحمل طفلها الرضيع راسل بين ذراعيها. كما أخبرتني ما أوضحت له عني، عن كون "دايفيد" يتمتّع بخيال واسع، فيلكُم نفسه ويخدش جسده ليسترعي انتباه الآخرين مذ ولد أخوه الصغير "راسل". كنت أتصوّرها في ذهني، تستعمل سحرها كأفعى، وتضم راسل إلى صدرها لتكسب المدير إلى جانبها.

وأردفت أنها، قبل نهاية حديثهما، أقرّت للمدير بسعادتها الكبرى في التعاون مع المدرسة، وطلبت منه الاتّصال بها متى واجهوا مشكلة مع دايفيد. وأخبرتني أنّ المعلّمين والمعلّمات تلقّوا جميعاً تعليمات بعدم الإصغاء إلى ما يحكيه الولد من قصص عن ضربه أو عن حرمانه من الطعام.

وقفتُ إزاءها في المطبخ ذاك اليوم، أصغي إليها تتبجّل بنفسها وقد استحوذ عليّ شعور بالفراغ التامّ. وفيما هي تخبرني عن اجتماعها بالمدير، استشعرت في كلامها ثقتها تلك، ثقة جمّة بعثت فيّ كلّ الخوف والقلق. تمنّيت أن أتحلّل وأختفي إلى الأبد. تمنّيت ألا أقف في مواجهة أي بشريّ آخر بعد اليوم.

يومذاك، قضت العائلة عطلة الصيف في "النهر الروسي". ورغم تحسّن علاقتي بأمّي، اضمحلّ ذاك الشعور السحري الذي كان بيننا.

وأمست النزهات الليلية في الشاحنة، وحفلات الشواء وسرد القصص طيفاً من الماضي. كنّا ننفق معظم الوقت في المقصورة يوماً بعد يوم، وغدَت رحلاتنا إلى شاطئ جونسون نادرة.

حاول أبي أن يُضفي على العطلة مزيداً من المرح، فكان يصطحبنا، أنا وأخويّ، إلى اللهو بلعبة التزحلق الجديدة. وتعوّدنا أن يبقى "راسل" في المقصورة مع أمّي لأنّه لا يزال رضيعاً. وذات يوم، فيما كنّا نلعب، أنا وأخواي في مقصورة الجيران، خرجت أمّي إلى الشرفة ونادتنا لنعود على الفور. وما إن دخلنا مقصورتنا، حتّى أخذت تؤنّبني على إحداث جلبة كبرى. وكان عقابي أن منعتني من الذهاب مع أبي للتزحلق.

جلستُ على كرسيّ في الزاوية، وكنتُ أرتجف راجياً ألا يرحلوا. أدركت أنّ أمّي تخطّط لأمر شنيع في ذهنها. وما إن رحلوا حتّى حملتْ أحد حفاضات راسل القذرة ولطّخت وجهي بمحتواه. حاولتُ ألا أحرّك ساكناً أبداً. لم أرفع ناظريّ إليها. ولم أستطع رؤيتها تقف أمامي، لكنّه كان بوسعي سماع تنفّسها المتقطّع.

وبعد مرور حوالى ساعة من الوقت، جثت أمّي على ركبتيها وقالت لي بنبرة هادئة:

"كُلْهُ". نظرتُ أمامي مباشرة مجتنباً أن تلتقي عيناي بعينيها. وقلت في نفسي: "مستحيل!". وكسائر الأحيان تقريباً، كان اجتنابها أفدح خيار! فانهالت عليّ صفعاً من جنب إلى آخر. تشبّثت بالكرسي لئلا أسقط أرضاً، خشية أن تقفز عليّ.

وصرَختْ بي: "قلتُ لك أن تأكله!"

لا بدّ من تغيير مخططاتي! شرعت أبكي قائلاً لنفسي: "استمهلها". ثمّ رُحتُ أعدّ مرور الوقت محاولاً التركيز. كان الوقت حليفي الوحيد. وأتى الجواب على بكائي مزيداً من اللكمات، وما كفّت عن ضربي إلاّ عند سماعها بكاء راسل.

غطّى البراز وجهي وكنت قانعاً رغم ذلك. خِلت أنّني قد أتغلّب عليها. حاولتُ إزالة القذارة عن وجهي، أقذف بها إلى الأرض الخشبيّة. فتناهى إلى سمعي صوت أمي تغنّي برقّة لــ "راسل"، وكنتُ أتصوره بين ذراعيها. صلّيت كي لا ينام، غير أنّ سعدي تلاشى بعد دقائق وجيزة.

عادت أمّي إلى غنيمتها، ترتسم الابتسامة على محيّاها. أمسكتني بأسفل عنقي وتوجّهت بي نحو المطبخ، حيث وضعتْ حفاضاً مليئاً بالبراز عند حوض الغسل أيضاً. كدت أتقيّأ من الرائحة. وأردفت أمي: "سوف تأكله الآن!". كان في عينيها النظرة نفسها كما ذاك اليوم عندما أرادت مني أن أجلس فوق فرن الغاز في منزلنا. فحرّكت عينيّ من دون أن أحرك رأسي، بحثاً عن الساعة المزخرفة بزهرات المرغريت الملوّنة المعلّقة على الحائط. هي لحظات معدودة، أدركت بعدها أنّ الساعة معلّقة خلفي. تملّكني اليأس من دون الساعة. عرفتُ بأنّني بحاجة إلى شيء ما أصبّ عليه تركيزي كي أتمكّن من السيطرة على زمام الأمور. وقبل أن أتمكّن من إيجاد الساعة، استحوذت أمّي على عنقي مجدّداً. وكرّرت أمرها: "كُلْهُ". حبستُ أنفاسي. كانت الرائحة شديدة للغاية. حاولت التركيز على زاوية الحفاض العليا. بدت الثواني ساعات. لا بدّ أنّ أمّي كشفت

خطتي، فأقحمتْ رأسي في براز الحفاض، ومرّغت وجهي به محركةً إياه يُمنة ويسرى. ارتقبتُ قيامها بذلك. فأغمضت عينيّ بقوّة موجّهاً رأسي إلى أسفل، وأبقيت على فمي مغلقاً جيّداً. غير أنّ أنفي لم يَسلم. شعرتُ بما يسيل منه، إنّه دافئ. كان دماً، حاولت إيقافه عبر استنشاقه، فاستنشقتُ معه بعض البراز. طرحتُ يديّ على حافة حوض الغسل محاولاً الإفلات من قبضة أمي. فأخذتُ أتخبّط من ناحية لأخرى مستجمعاً كلّ قواي. لكنّها فاقتني قوّة. فجأةً، أفلتتني. وقالت لاهثة: "لقد عادوا! لقد عادوا!". ثم تناولتْ المنشفة بجانب المغسلة، ورمتها في وجهي. وفيما هي تزيل البقع البنّية عن حوض الغسل، صرخت بي: "امسح هذه القذراة عن وجهك!".

نظّفتُ وجهي جيّداً بعد أن أخرجتُ البراز من أنفي. وبعد لحظات، أقحمتْ أمّي منديلاً ورقيّاً في أنفي الذي ينزف، وأمرتني أن أجلس في الزاوية.

جلست في الزاوية طيلة المساء، أشتمّ بقايا البراز في أنفي.

ومذ ذاك، لم تعد العائلة إلى "النهر الروسي" مطلقاً.

أقبلَ أيلول، وعدتُ إلى المدرسة أرتدي ثياب السنة الماضية وأحمل علبة الطعام الخضراء القديمة يكسوها الصدأ. كنتُ العار متجسّداً بإنسان. وكانت أمّي تُعدّ لي الطعام نفسه كلّ يوم: سندويشتَيْ زبدة الفستق والقليل من قطع الجزر الرفيعة.

وبما أنّني لم أعُد فرداً من العائلة، مُنع عليّ ركوب السيّارة. جعلتني أمّي أذهب إلى المدرسة ركضاً. عرفتُ أنّني لن أبلغها في الوقت المناسب لأسرق طعام أحد زملائي في الصفّ.

وفي المدرسة، كنتُ منبوذاً حقّاً. لم يودّ أيٌّ من الأولاد مُصادقتي. وخلال استراحة الغداء، كنت أحشو معدتي بطعامي، وأصغي إلى أصدقائي السابقين يردّدون عنّي: "دايفيد سارق الطعام!"، "بيلزر النتن!".

كانت هاتان العبارتان أفضل ما تعوّدوا ترداده عنّي في الملعب... لم أملك صديقاً ما أتحدّث إليه أو ألعب معه. وشعرتُ بالوحدة التامّة.

أمّا في المنزل، فكنت أقضي وقتي، وأنا أقف لساعات في المرآب، أحاول التفكّر بوسائل جديدة تخوّلني تناول الطعام. كان أبي يحاول إعطائي فتات الطعام خلسة بين الفينة والفينة، لكنّه غالباً ما أخفق. وخلصتُ إلى الاستنتاج بأنّه عليّ الاعتماد على نفسي إذا ما أردتُ أن أبقى حيّاً. استنفدت كلّ الوسائل المحتملة في المدرسة. وأصبح جميع الطلاب يخبّئون علب طعامهم، أو يضعونها في الصفّ في خزانة المعاطف المزوّدة بأقفال. وبات المدير والأساتذة يعرفونني جيّداً ويراقبونني بحذر. وأمستْ فرصتي في سرقة الطعام من المدرسة ضئيلة أو بالأحرى معدومة، إلى أن وضعت خطّة أخيراً افترضتُ نجاحها. كان ممنوعاً على الأولاد مغادرة الملعب عند استراحة الغداء. لذا، لم يتوقّع أحد منّي أن أرحل.

كانت فكرتي أن أتسلّل خارج الملعب، وأركض نحو متجر البقالة المحلّي لأسرق الكعك والخبز والبطاطس أو أي شيء آخر. رسمتُ خطّتي نقطة فنقطة في ذهني.

وفي اليوم التالي، ذهبت إلى المدرسة كالمعتاد، وعددت كلّ خطوة قمت بها كي أقيس مسافة مساري، فأتبعها لاحقاً في طريقي إلى المتجر. وبعد أسابيع قليلة، استكملتُ كلّ المعلومات الضروريّة.

ولم يبقَ إلا أن أمتلك الشجاعة للشروع في خطّتي. عرفتُ أنّ الوصول إلى المتجر من المدرسة سيستغرق بعض الوقت لأنّه مشيّد فوق تلّة، فأطلَتُ مدّة الخطّة إلى خمس عشرة دقيقة ذهاباً، وعشر دقائق إياباً، لأنّ نزول التلّة أسهل، ما يعني أنّ الوقت المتبقّي لي لسرقة المتجر هو عشر دقائق فقط.

كنتُ أحاول أن أعدو أسرع كلّ يوم بذهابي إلى المدرسة والعودة منها. فأحتسب الخطوات كما لو أنّني عدّاء حقيقيّ. مرّت الأيّام وأصبحت خطّتي أكثر رسوخاً في ذهني؛ فاستحال جوعي حلماً من أحلام اليقظة. رُحت أتخيّل نفسي كيف أؤدّي الأعمال المنزليّة دوماً، كيف أجثو على ركبتيّ ويديّ لتنظيف بلاط الحمام. تصوّرت نفسي أنتحلُ شخصية الأمير في قصّة "الأمير والفقير". وبصفتي أميرّ، عرفتُ أنّه بمقدوري إنهاء تأدية دور الخادم متى أردت.

وقفت في القبو وقفة الجبّار، مُغمضاً جفنيّ، وأخذتُ أحلم بأنّني بطل في قصّة هزليّة. لكنّ آلام الجوع قطعت عليّ أحلام اليقظة تلك، وسرعان ما رَسَت أفكاري عند مخطّطي في سرقة الطعام.

لكنني كُنت أخشى تنفيذه، حتى وإن كنت متأكّداً من نجاحه. وكنت، خلال استراحة الغداء في المدرسة، أتمشّى في الملعب، وأقدّم الأعذار لنفسي مبرّراً افتقاري إلى الشجاعة كي أسرق المتجر. فأُقنع نفسي بأنّهم سيضبطونني، أو بأنّ حساباتي الزمنية تعوزها الدقّة. وفي خضمّ صراعي الداخلي، كانت معدتي تُصدر هديراً وتدعوني "جبان".

وأخيراً، بعد أن بقيت لأيامٍ عديدة من دون عشاء، ولم أتناول سوى الفضلات القليلة عند الفطور، قرّرتُ أن أنفذ الخطّة.

قُرِع جرس الغداء، مرّت بضع لحظات، وانطلقتُ صعوداً باتجاه الشارع، بعيداً عن المدرسة، قفز قلبي بين أضلُعي، واستغاثت رئتاي الهواء. فبلغت المتجر خلال نصف الوقت الذي حدّدته لنفسي. رُحت أمشي جيئة وذهاباً بين ممرّات المتجر، وشعرت بأنّ الكلّ يحدّق إليّ. كما شعرت أنّ الزبائن يتهامسون يتناقلون كلاماً عن الولد النتن، الرثّ الملابس. عندئذ بالذات، أيقنت إخفاق خطّتي لأنّني لم آخذ بعين الاعتبار كيف سأبدو في نظر الآخرين. وكلّما قلقت على مظهري، كلّما انقبضت معدتي خوفاً. تسمّرتُ في مكاني أقف وسط الممرّ، لا أدري ما العمل. رحت أعدّ انقضاء اللحظات. أتفكّر في كلّ الأوقات التي تملّكني الجوع فيها. ثم فجأة، ولا شعورياً، سلبتُ أوّل ما تراءى لناظريّ على الرفّ، ولُذت من فوري خارج المتجر مسرعاً نحو المدرسة. تشبّثتُ بإحكام بما في حوزتي: علبة من البسكويت الهشّة!

خبّأت غنيمتي بدنوّي من المدرسة، ثم دسستُ بها داخل قميصي على الناحية الخالية من الثقوب بمروري في باحة المدرسة. وما إن أصبحت في الداخل حتّى توجهت إلى حمام الفتيان وألقيت الطعام في سلّة المهملات بغية تخبئتها. وفي وقت متأخّر عصر ذاك اليوم، استأذنت الأستاذ وعدت إلى الحمّام لألتهم غنيمتي. سال لعابي، وإذا بي أنظر إلى سلّة المهملات، فأجدها فارغة! ويلي، انسحق قلبي... وانسحقت معه مخطّطاتي الحذرة ومعاناتي في إقناع نفسي بإمكان أن آكل. لقد أفرغ عامل التنظيف القمامة قبل أن أتمكّن من بلوغ الحمّام...

أخفقت خطّتي ذاك اليوم، لكن الحظ حالفني في محاولات أخرى. فذات مرّة، تمكّنت من تخبئة كنزي داخل طاولتي في صف التسجيل، لأعرف في اليوم التالي أنّه تمّ إحالتي إلى المدرسة على الجهة المقابلة من الشارع. سررت بإحالتي، إلا أنّي حزنت على فقداني ما سرقته من طعام. فحظيتُ عندها برخصة سرقة جديدة. كنت أسرق طعام أترابي في الصفّ، فضلاً عن التسلّل إلى متجر البقالة مرّة في الأسبوع. وكنت أعدُل أحياناً عن سرقة شيء ما من المتجر إذا شعرت بأنّ الأمور لن تسير على ما يرام. كانوا، كالمعتاد، يضبطونني في النهاية. ويتّصل المسؤول بأمي، فتضربني بعنف متى وصلتُ المنزل.

عرف كلّ من أمّي وأبي سبب سرقتي الطعام. مع ذلك، ظلّت ترفض إطعامي. وكلّما تضوّرت جوعاً، حاولت التفكير بخطّة أفضل لسرقة الطعام.

تعوّدتْ أمّي أن ترمي فضلات الطعام في سلّة مهملات صغيرة بعد العشاء. ثمّ تستدعيني لأصعد من الطابق السفلي حيث كنت أقف فيما تتناول العائلة طعام العشاء. كان غسل الأطباق وظيفتي.

كنتُ أقف إلى حوض الغسل، ويداي في الماء الشديد السخونة، فأشتمّ رائحة بقايا العشاء تفوح من سلّة المهملات الصغيرة. كنت أشعر بالغثيان في البداية، لكن كلّما أمعنتُ التفكير بالأمر، تصوّرته حسناً. فقد كان رجائي الوحيد الحصول على الطعام. كنت أنهي غسل الأطباق بأسرع ما يمكن، ثمّ أتوجّه إلى المرآب لأفرغ القمامة. كان لعابي يسيل عند رؤية الطعام. فأنتقي قطع الطعام الجيّدة بتأنٍ

مبعداً قصاصات الورق وأعقاب السجائر، ثمّ ألتهم الطعام بسرعة.

وكالمعتاد، كانت خطّتي تعرف نهاية حادّة عندما ضبطتني أمّي. فعدلتُ عن التنقيب الروتيني في القمامة، غير أنّه كان عليّ اتّباعه مجدّداً كي أُسكت معدتي الخاوية.

وذات مرّة، أكلتُ بعضاً من بقايا لحم البقر. وبعد ساعات انتابني ألم حادّ في المعدة. فأُصبت بالإسهال لأسبوع كامل. حينئذ أخبرتني أمّي أنّها وضعت، عن عَمدٍ، اللحم في الثلاجة لأسبوعين وتركتها لتفسد قبل أن ترميها. عرفَتْ أنّني عاجز عن ردع رغبتي في سرقتها.

ومع مرور الوقت، باتت أمّي تطلب منّي إحضار سلّة المهملات إليها كي تتحقّق من محتواها وهي تستلقي ممدّدة على الأريكة. لم تعلم يوماً أنّني كنت أغلّف الطعام بورق الحمّام وأخبّئها في قعر السلّة. هي لن تحبذ تلويث يديها بالقذارة وهي تنقّب فيها حتّى القعر، فنجحت خطّتي لبعض الوقت.

شعرتْ أمّي بأنّني كنت أحصل على الطعام بطريقة ما، فأخذت ترشُ الأمونياك في سلّة المهملات. وبعد ذاك، عدلتُ تماماً عن قمامة المنزل، لأبحث عوضاً عن ذلك، عن وسيلة أخرى تمكّنني من الحصول على الطعام في المدرسة. فبعد أن ضبطت أسرق الطعام من الأولاد الآخرين، قامت فكرتي الثانية على نهب الطعام المثلّج من كافيتيريا المدرسة.

جعلتُ وقت قضاء حاجتي يتزامن ووصول شاحنة الطعام، فأطلب إذن الأستاذ للخروج من الصفّ مباشرة بعد أن تفرغ شاحنة التسليم الطعام المثلّج.

تسلّلت إلى الكافيتيريا وسرقت بعض صينيات الطعام المثلّج، ثمّ هرعت إلى الحمّام. كنت وحيداً ورحت أبتلع النقانق المثلّجة والبطاطا بكمّيات كبيرة وبأسرع ما يمكنني لدرجة أنّني كدت أختنق. ثمّ عدت إلى الصفّ بعد أن ملأت معدتي، معتدّاً بنفسي لأنّني تدبّرت طعامي بنفسي.

في طريقي إلى المنزل عصر ذاك اليوم، استحوذتْ على ذهني فكرة واحدة: سرقة الطعام من الكافيتيريا غداً! وبالكاد مرّت دقائق معدودة حتى بدّلتُ رأيي بسبب أمي. سحبتني إلى الحمّام ولكمتني في معدتي بقوّةٍ تقوّس ظهري معها. ثمّ أدارت جسدي حتى واجه رأسي المقعد. وأمرتني أن أقحم إصبعي داخل حلقي. قاومت ولم أمتثل. حاولت تنفيذ حيلتي القديمة بعَدّ الدقائق محدقاً إلى المرحاض المصنوع من حجر البورسولين. وبدأت أعدّ: "واحداً... اثنين" ولم أبلغ الثلاثة حتّى أقحمت أمّي إصبعها في فمي كما لو أنّها تريد انتزاع أحشائي من داخلي. تخبّطتُ في كلّ الاتّجاهات محاولاً مقاومتها. ولم تُفلت قبضتها عنّي إلاّ عندما وافقت على التقيّؤ من أجلها.

علمتُ ما كان ليجري بعدها. فأغمضت جفنيّ فيما راحت قطع اللحم الحمراء تتساقط في المرحاض. كانت أمّي تقف ورائي وتضع يديها على خصرها ثم قالت: "هذا ما ظننته! ثق أنّ والدكَ سيعلم بالأمر!". فشددت جسدي أتحضّر لوابل اللكمات التي كانت ستنهال عليّ حتماً. لكن شيئا لم يحصل. استدرت بسرعة من حولي، كانت أمّي قد خرجت من الحمّام. عرفت أنّ الحكاية لم تنتهِ بعد. هي لحظات وعادت تحمل بيدها قدراً صغيراً، وأمرتني أن أُخرِج الطعام الذي هضمته معدتي جزئياً من المرحاض وأضعه في القِدر. كانت أمّي تجمع

الإثباتات لتريها لأبي عند عودته بما أنّه يقوم بالتسوّق الآن.

في وقت متأخّر تلك الليلة، وبعد أن انتهيت من القيام بكلّ أعمالي المنزليّة، أجبرتني أمّي على الوقوف بمحاذاة طاولة المطبخ فيما كانت تتكلّم مع أبي في غرفة النوم.

كان أمامي قِدر النقانق التي تقيّأتها. لم أستطع النظر إلى القدر فأغمضت عينيّ وحاولت تصوّر نفسي في مكان ما، بعيداً عن المنزل. وبعد قليل، دخل أبي وأمّي المطبخ.

صاحت أمّي وهي تشير بإصبعها إلى القِدر: "أنظر إلى هذا يا ستيف! أنت تظنّ أنّ الولد يسرق الطعام، أليس كذلك؟".

أظهرت ملامح وجه أبي سأمه المتعاظم من ترداد "ما فعله الولد".

حدّق ببصره إليّ وأومأ برأسه بعدم الموافقة ثمّ قال متلعثماً: "حسن، يا روريفا، لكن ما الخطب إن أعطيتِ الصبي ما يأكله!؟".

فاندلعت أمامي حرب كلاميّة ساخنة، خرجت منها أمّي منتصرة كالمعتاد. وأخذتْ تصرخ بأعلى صوتها: "ما يأكله!؟ أتريد أن يأكل الولد يا ستيفان!؟ حسن إذن! سيحصل الولد على ما يأكله! يمكنه أن يأكل هذا!؟ ". ثمّ دفعتْ بالقِدر نحوي وخرجت وعادت إلى غرفتها.

خيّم الهدوء على المطبخ لدرجة أنّي سمعت تنفّس أبي المتوتّر. ثمّ وضع يده على كتفي بلطف وقال: "انتظر هنا، أيّها النمر. سأرى ما يمكنني فعله". رجع بعد لحظات عديدة، بعد أن حاول إقناع أمّي في تبديل رأيها. فتفرستُ في ملامح وجهه، وعرفتُ مَنْ خرج منتصراً.

جلست على الكرسيّ، ورحت ألتقط كُتل النقانق، أُخرجها من القِدر. انزلق لعاب كثيف من بين أصابعي عندما وضعت اللحم في فمي.

شرعتُ أئنّ محاولاً ابتلاعه. استدرتُ نحو أبي، كان ينظر إليّ ويحمل في يده شراباً ما. فأومأ لي برأسه كي أستمرّ في الأكل. لم أستطع تصديق ما رأته عيناي. كان يقف قبالتي بكلّ بساطة، يشاهدني آكل محتوى القِدر المقزّز. وعند تلك اللحظة بالذات، أدركت أنّ الهوّة بدأت تتّسع بيننا.

حاولتُ ابتلاع الطعام من دون تذوّق طعمه إلى أن شعرت بيدٍ تُحكم قبضتها على عنقي. علا صوت أمّي مغتاظة: "إمضغه! كُلهُ كلّه!"، كانت تشير إلى اللعاب وهي تتكلّم. استغرقتُ في كرسيّ. وفاضت عيناي دمعاً سال بغزارةٍ على وجنتيّ. مضغت الخليط، ثم حنيتُ رأسي إلى الوراء لأبتلع ما بقي عالقاً في حلقي. أغمضت جفنيّ، أصرخ لنفسي لئلا يرتدّ الطعام إلى فمي، ولم أفتحهما إلا عندما تأكّدت من أنّ معدتي لن ترفض الخليط. ثمّ فتحتهما وحدّقت إلى والدي الذي أشاح بنظره عني كي يجتنب رؤيتي أتألم. كرهتُ أمّي في تلك اللحظة، كرهتها كرهاً لا حدود له. وفاق كرهي لأبي حقدي عليها. فالرجل الذي ساعدني في الماضي، ينتصب أمامي تمثالاً يشاهد ما يتناوله ابنه من طعام تأبى الكلاب أن تشتمّه حتّى.

وبعد أن أنهيتُ تناول ما تقيّأته، خرجت أمّي، ثمّ عادت ترتدي قميص النوم، ورمت في وجهي رزمة صحف. وقالت لي إنّ الصحف ستكون الملاءات التي أغطّي نفسي بها وإنّ الأرض، تحت طاولة المطبخ، سريري. ورمقتُ أبي نظرة أخرى، لكنّه تصرّف وكأنّني لم أكن موجوداً في الغرفة حتّى! حبست دمعي لئلا أنفجر بكاء أمامهما. وكجرذٍ في قفص، زحفتُ تحت الطاولة، مرتدياً ثيابي

كاملة ولففت نفسي بالصحف.

نمت لأشهر عديدة تحت الطاولة بمحاذاة صندوق الهررة، وسرعان ما تعلّمت كيفيّة الإفادة من الصحف. فبمجرّد أن ألتفّ بها، كنت أبقى دافئاً جرّاء ما يطلقه جسدي من حرارة.

في النهاية، أخبرتني أمّي أنّني لم أعد أتمتّع بصلاحيّة المكوث في الطابق العلوي، فأقصتني إلى أسفل، إلى المرآب.

حظيت عندئذٍ بسرير عسكريّ نقّال قديم. حاولت أن أبقي رأسي بقرب مدفأة الغاز كي أظلّ دافئاً. لكنني أدركتُ أنه من الأفضل لي أن أتأبّط يديّ، وألفّ ساقيّ نحو أردافي. كنت أستيقظ ليلاً أحياناً. وأتصوّر نفسي إنساناً حقيقيّاً ينام في سريره، تُغطّيه ملاءات كهربائيّة دافئة، ويعلم أنّه بأمان وأنّ أحدهم يحبّه. كان خيالي يعمل لبعض الوقت، إلا أنّ صقيع الليالي كان يعود بي إلى حقيقتي. عرفت أنّ أحداً لن يتمكّن من مساعدتي؛ أكان أساتذتي، أو أخواي المزعومان، أو حتّى أبي. كنت وحيداً، وكنت أصلّي لله كلّ ليلة كي يمنحني القوّة جسداً وروحاً. فأنام، تكتنفني ظلمة المرآب، مُمدّداً جسدي على السرير الخشبي، وأروح أرتجف إلى أن أستسلم لنوم... يُضنيه الأرق.

وذات ليلة، كنت أتوهّم أموراً لنفسي، فحضرتني فكرة تسوّل الطعام وأنا في طريقي إلى المدرسة! فكّرت أنّ ما سآكله صباحاً، ستكون معدتي قد هضمته عند العصر، مع أنّ "التحري بالتقيّؤ" كان يأخذ مجراه عصراً كما في كلّ يوم عند عودتي من المدرسة.

فحرصتُ على أن أعدو بسرعة أكبر إلى المدرسة، كي يتبقّى لي ما يكفي من الوقت لصيد الطعام. عندئذ، بدّلتُ مخطّطي في أن

أتوقّف لأطرق عند كلّ باب. فكنت أسأل سيّدة المنزل إذا حصل أن وجدت علبة طعامي قرب منزلها. نجحت خطّتي بجزئها الأكبر. كن يشعرن بالشفقة عليّ، بدا ذلك واضحاً على ملامحهن. وانتحلتُ اسماً مزيّفاً لهذه الغاية، فلا يكتشف أحد هويّتي الحقيقيّة.

لاقت خطّتي نجاحاً لعدّة أسابيع، إلى أن وصلتُ ذات يوم إلى منزل سيّدة تعرف أمّي. فانتهت قصّتي المجرّبة هذه: "أضعتُ غذائي. أيمكنكِ أن تُعدّي لي الطعام من فضلك؟". وعلمت، قبل أن أغادر منزلها، بأنّها ستتّصل بأمّي.

ذاك اليوم، صلّيتُ أن تحلّ نهاية العالم. وفيما كنت أتململ قلقاً في الصفّ، عرفت أنّ أمّي مستلقية الآن على الأريكة في المنزل، تشاهد التلفزيون، وهي تفكّر بأمر شنيع تنفّذه عليّ ما إن أرجع إلى منزلها بعد المدرسة. وفيما أخذتُ أركض إلى المنزل بعد المدرسة عصر ذلك اليوم، شعرت وكأنّ ساقيّ محتجزتان في قطع من إسمنت. وصلّيتُ، مع كلّ خطوة أخطوها، ألا تكون صديقة أمّي قد اتّصلت بها. صلّيت أن تكون قد خالتني صبيّاً آخر. كانت السماء فوقي زرقاء وأشعة الشمس تُدفئ ظهري. وباقترابي من منزل أمّي، رفعت ناظريّ إلى الشمس، أتساءل إذا ما سأبصرها مجدّداً.

فتحت باب المدخل بحذر قبل أن أنسلّ إلى الداخل. ثمّ توجّهت نحو المرآب ونزلت السلالم أمشي على رؤوس أصابعي. ترقّبتُ أن تهرع أمّي نحوي في أي لحظة وتطرحني أرضاً عن درجات السلم. لكنّها لم تأتِ. وبعد أن ارتديت ملابس التنظيف، تسلّلت إلى المطبخ ورحتُ أغسل أطباق طعام الغداء. لم أستطع تحديد موقع أمي،

فأعملت أذنيّ كرادار بحثاً عنها. لَبِسَ الخوف ظهري وأنا أغسل الأطباق. ارتجفت يداي ولم أستطع التركيز على عملي. وأخيرا سمعت وقع خطوات أمّي تسير في الردهة متوجّهة إلى المطبخ.

وفي وميض لحظة، ألقيتُ بناظريّ إلى الخارج عبر النافذة. وتناهت إلى مسمعي أصوات الأولاد وهم يصرخون ويضحكون ويلعبون. ثمّ أغمضتُ جفنيّ لبرهة وتصوّرت نفسي معهم. لفّ الدفء روحي وارتسمت على شفتيّ ابتسامة. غير أنّ قلبي وثب بين أضلعي عندما أحسست بتنفّس أمّي يلفح عنقي. ولروعي، سقط طبق من يدي لكنّي استطعت التقاطه في الهواء قبل أن يبلغ الأرض وينكسر.

فقالت متهكمة: "يا لك من صبيّ قذر صغير سريع! أو لست كذلك؟ بمقدورك العدو بسرعة وتسوّل الطعام. حسن إذن... سنرى كم أنّك سريع حقّا!". خلت أنّني سأتلقّى ضربة عنيفة، فشددت جسدي أنتظر أن تضربني. لكنّ شيئاً لم يحدث. ظننت أنّها ستدعني وشأني وتعاود مشاهدة برنامجها التلفزيوني. لكن هذا أيضاً لم يحصل. ظلّت أمّي تقف على بعد إنشاتٍ خلفي، تُراقب كلّ حركة أقوم بها. كنتُ أرى انعكاسها على زجاج النافذة. رأته أمّي أيضا فابتسمت. كدت أن أبول في سروالي.

وما إن انتهيتُ من غسل الأطباق حتّى انتقلتُ لتنظيف الحمّام. جلستْ أمّي على المرحاض فيما كنت أنظّف حوض البانيو. وبينما كنتُ أجثو على يديّ وركبتيّ أفرك البلاط، إذا بها تقف خلفي بهدوء لا تأتي بحركة. توقّعت أن تستدير أمي وتركلني في الوجه، لكنّها لم تفعل. راح قلقي يتعاظم في نفسي فيما رحتُ أؤدي أعمالي المنزليّة.

عرفت أنّ أمّي ستضربني، لكنّني لم أعرف كيف أو أين أو حتّى متى. بدا لي وكأنّني لن أنتهي من تنظيف الحمّام. وارتجفت رجلاي ويداي من الارتقاب.

لم أستطع التركيز إلا عليها. فمتى تملّكتني الشجاعة لأنظر إليها، كانت تبتسم وتقول "أسرع أيّها الشابّ. عليك أن تسرع أكثر".

وعندما حان وقت العشاء، كان الخوف قد أعياني. كدتُ أغفو بانتظار أمّي أن تستدعيني لرفع الطعام عن الطاولة وغسل الأطباق. شعرتُ بأحشائي تنفصل عنّي وأنا أقف وحيداً في المرآب. أردت الصعود إلى الطابق العلوي بإلحاح لدخول الحمّام، لكنّي كنت على يقين بأنّني "سجين" ولا يحقّ لي أن آتي بحركة من دون إذن أمّي. وقلت في نفسي: "لربّما هذا ما تخطط له، أن أشرب بولي". في البداية، كانت الفكرة في غاية الشناعة ليتصوّرها المرء، لكن، كان عليّ أن أهيّء نفسي لكلّ ما قد تفعله أمّي بي. وكلّما حاولت التركيز على كلّ ما قد تفعله، كنت أشعر بعزيمتي تخور.

عندئذ راودتني فكرة! أيقنتُ لِمَ تتبّعت أمّي كلّ حركة قمت بها! أرادتْ أن تمارس ضغطاً متواصلاً عليّ فتدعني غير واثقٍ متى أو أين قد تضربني. وقبل أن أتمكّن من التفكير بطريقة ما لأهزمها، نادتني لأصعد إلى الطابق العلوي.

كنا في المطبخ، فقالت لي أنّ سرعة الضوء وحدها كفيلة بإنقاذي، ومن الأفضل لي أن أغسل الأطباق محطّماً رقماً قياسيّاً. وأردفت متهكمة: "ما من داعٍ طبعاً لأُعلمك بأنّك لن تحصل على طعام العشاء هذه الليلة. لكن لا تقلق، لديّ علاج لجوعك".

انتهيتُ من أعمالي المنزليّة المسائية، فأمرتني أمّي بالانتظار في الطابق السفلي. وقفت أنتظر، أتّكئ بظهري إلى الحائط الصلب، أتساءل ما قد خطّطتْ لي.

لم أملك أدنى فكرة عمّا قد تفعله. فكسا جسمي عرقٌ باردٌ، بدا وكأنّه يخترق أضلعي. أضناني التعب لدرجة أنني كدت أغفو وأنا واقف. وكلّما انحنى رأسي إلى الأمام، كنت أرفعه موقظاً نفسي. ومهما جهدتُ في البقاء مستيقظاً، عجزتُ عن السيطرة على رأسي الذي ظلّ ينحني إلى الأمام والخلف كقطعة فلّين في وعاء ماء. وكنت، في حالة السهو تلك، أتحسّس ما بي من توتّر، يرتقي بروحي عن جسدي، وكأنّي أحلّق معها أنا أيضاً. شعرتُ بخفةٍ توازي خفةَ ريشةٍ، إلى أن أيقظني رأسي بانحنائه إلى الأمام.

كنت أذكى من أن أغطّ في سبات عميق. فإن ضُبِطتُ بهذه الحال، سيكون عقابي مميتاً. وكان المنفذ أنْ رحتُ أحدّق إلى نافذة المرآب المزيّنة، أصغي إلى أصوات السيّارات المارّة وأشاهد وميض الأضواء الحمراء تطلقها الطائرات المحلّقة نحو السماء، وتمنّيت، من صميم القلب، لو بمقدوري أن أطير بعيداً بعيداً.

وبعد ساعات عديدة، نام رون وستان، فأمرتني أمّي بالعودة إلى الطابق العلوي. خشيتُ كلّ خطوة كنت أخطوها. أدركتُ أنّ الوقت حان. كانت أمي قد استنزفت قواي كلها نفسياً وجسدياً. لم أعرف ما كانت تخطّط لي. تمنّيتُ بكلّ بساطة أن تضربني وتنتهي من المسألة.

فتحتُ الباب، وكنت هادئاً. لفّت الظلمة المنزل باستثناء ضوء واحد في المطبخ. رأيت أمّي تجلس إلى الطاولة. وقفتُ مكاني لا

آتي بحركة. ابتسمتْ لي.

تشوّشت أفكاري، غير أنّ سهوي تلاشى عندما نهضت أمّي من مكانها وتوجّهت نحو حوض الغسل. جثت على ركبتيها، فتحت الخزانة وتناولت منها قارورة أمونياك. لم أعِ ما كان يحدث. ثمّ التقطت ملعقة وسكبت فيها بعضاً من السائل. كنت مشوّش الذهن لأفكر، وعجزت عن جمع الأفكار في عقلي المخدَّر، مع أنّني أردت ذلك بشدّة.

أخذت أمّي تدنو منّي، وهي تُمسك الملعقة في يدها. تحرّكَ السائل في الملعقة وسقط بعضه إلى الأرض. فتراجعتُ مبتعداً عن أمّي إلى أن لامس رأسي حوض الغسل المحاذي للفرن. كادت روحي أن تنفجر ضحكاً وقلت لنفسي: "أهذا كلّ شيء؟ أهذا ما ستفعله بي؟ أن أبتلع بعضاً من السائل؟ ".

لم أخف مطلقاً. وكلّ ما استطعت التفكير به هو: "هيّا، فلنقم بذلك. فلننته من الأمر!".

انحنت أمّي نحوي، وقالت لي مجدّداً إنّ سرعة البرق وحدها كفيلة بإنقاذي. حاولتُ فهم أحجيتها، لكنّ ذهني كان مشوّشاً.

فتحت فمي من دون تردّد، فأقحمت أمّي الملعقة الباردة في حلقي. ومجدّداً، قلتُ لنفسي إنّ الأمر في غاية السهولة. وإذا بي أعجز عن التنفّس بعد لحظة واحدة!

أطبقَ حلقي. ورحتُ أتخبّط أمام أمي، شعرت وكأنّ عينيّ تخرجان عن جمجمتي. ثمّ سقطت أرضاً على يديّ وركبتيّ. كان عقلي يصرخ: "فقاعة! فقاعة!". ورحت أضرب أرض المطبخ بكلّ ما أوتيت به من قوّة، أحاول أن أبتلع لعابي وأركّز على فقاعة الهواء العالقة في مريئي.

انتابني الخوف تلك اللحظة. وانسكبت دموع الفزع على وجنتيّ. مرّت ثوانٍ معدودة شعرت معها بأنّ قوة قبضتيّ تخور. خدشتُ الأرض بأظافري. وحدّقت ببصري إليها. بدت الألوان وكأنّها تتشابك. أحسستُ بأنّني سأفقد وعيي وأيقنت أنّني سأموت.

ثمّ عدتُ إلى صوابي، كانت أمي تصفعني على ظهري. ساعدتني ضرباتها العنيفة على التجشؤ، فانسلّ الهواء إلى رئتيّ مجدّداً وتنفّست. ورحتُ أنا أتنشّق الكثير من الهواء لأُحيي رئتيّ. وحدّقتْ أمي إليّ ثمّ نفخت بعض الهواء نحوي قائلة: "والآن... لم يكن ذلك صعباً. أليس كذلك؟". عندها، صرفتني إلى أسفل كي أنام.

كرّرتْ أمي فعلتها في الليلة التالية، لكن بحضور أبي هذه المرّة. وقالت له وهي تصرخ: "هذا سيلقّن الولد درساً كي يكفّ عن سرقة الطعام!". عرفتُ أنّها تقوم بذلك لإشباع رغباتها المنحرِفة المُقزّزة. وقفَ أبي كميتٍ أمامي فيما سكبت أمّي في فمي جرعة أخرى من الأمونياك. لكنّي قاومت هذه المرّة. حاولتْ أمي جاهدة أن تفتح فمي. وتمكّنتُ، عبر تحريك رأسي من جهّة لأخرى، أن أجعلها تكبّ معظم المنظّف على الأرض. لكنّ ذلك لم يكن كافياً. وثانية، شبكتُ أصابعي ورحتُ أضرب الأرض بيديّ. نظرت إلى أبي أحاول أن أستنجده. كان ذهني صافياً، لكنّي عجزت عن النطق.

وقف فوقي، لا إحساس يحرّكه، رغم أنني لامستُ قدميه بيديّ. وقبل أن أفقد وعيي، ضربتني أمّي على ظهري بضع مرّات كما لو أنّها انحنت تداعب أحد كلابها.

وصباح اليوم التالي، كنت أنظّف الحمّام، فنظرت في المرآة كي

أتحقّق ممّا حلّ بلساني. كانت بعض طبقات اللحم قد انسلخت عنه، وما بقي منه كان دامياً. وقفت، أحدّق في المغسلة، أفكر كم أنّني محظوظ لبقائي على قيد الحياة.

بعد ذاك، لم تجبرني أمّي على ابتلاع الأمونياك، لكنها استبدلته لبضع مرّات بالكلوروكس. كان الصابون السائل المُعدّ لغسل الأطباق لعبتها المفضّلة. ذات مرة، عصرت في حلقي ذاك السائل الزهري الزهيد الثمن، وأمرتني أن أقف في المرآب. شعرت بفمي جافّاً جدّاً، فتوجهتُ نحو حنفيّة الماء في المرآب وملأتُ معدتي منها. لكنّي سرعان ما اكتشفت أنّني ارتكبت خطأً فادحاً فأصبتُ بالإسهال.

صرختُ أستغيث بأمي في الطابق الأعلى، أتوسّلها كي تدعني أقضي حاجتي في حمّام الطابق العلوي. لكنّها رفضت السماح لي بذلك. وقفت في الأسفل، أخشى أن آتي بحركة. غير أنّ كتل الإسهال سقطت في لباسي الداخلي وبنطالي لتطال أرض المرآب.

شعرت بحقارة كبرى. بكيتُ كطفل. فقدتُ كل احترام ذاتي حيال أي شيء. أردتُ دخول الحمامِ مجدداً، لكني خشيتُ أن أتحرك. وراحت أمعائي تدور، فحاولتُ المحافظة على ما تبقى لي من كرامة. مشيتُ بروية نحو مغسلة المرآب. تناولت صندوقاً كبيراً، ثمّ جلست القرفصاء لأقضي حاجتي. أغمضت عينيّ أحاول التفكّر بطريقة ما لأنظّف جسمي وثيابي، وفجأة، سمعت صوت الباب يفتح خلفي. أدرت رأسي إلى الوراء ورأيت أبي ينظر، بهدوء، إلى ابنه الذي "يحملق" إليه، فيما راح السائل البنّي يتساقط في الصندوق. أحسستُ بأنّي أحقر من كلب حتّى.

مع كل هذا، لم تفز أمّي بألعابها دوماً. ففي أحد الأيّام التي كانت تُبقيني فيها في المنزل، عصرتْ أمّي الصابون السائل في حلقي وأمرتني بتنظيف المطبخ. مرّت الدقائق، وكان السائل يمتزج بلعابي حينها. ولكنني، لم أسمح لنفسي بابتلاعه. وما إن انتهيت من أعمالي في المطبخ حتّى هرعت إلى أسفل كي أفرغ القمامة. وابتسمت ابتسامة عريضة، وأنا أغلق الباب خلفي وأبصق ما في فمي من الصابون الزهري اللون. وُضع بجانب باب المرآب، مستوعبات القمامة، فتمكّنت من بلوغ أحدها والتقاط منديل حمّام ورقيّ مستعمل ونظفتُ داخل فمي به حريصاً على إزالة كلّ نقطة من السائل. وشعرت، عندما انتهيت، وكأنني فزت في سباق الألعاب الأولمبيّة. كنت فخوراً جداً لقهر أمي في لعبتها الخاصّة.

ومتى حاولت الحصول على ما آكله، كانت أمي تضبطني على الفور، ومع ذلك، أخفقت في ذلك أحياناً.

مكثتُ في المرآب لأشهر عديدة، وأخيراً تملّكتني الشجاعة، فقمت بسرقة بعض الطعام المثلّج من الثلاجة في المرآب.

كنت على أتمّ يقين بأنني سأدفع ثمن جريمتي في أي وقت كان، فأتناول كلّ قضمة كما لو أنّها وجبتي الأخيرة.

اكتنفت الظلمة المرآب، فأغمضت عينيّ، ورحتُ أحلم بأنّني ملك يزدان بأبهى حلّة، ويأكل أفضل الأطعمة التي بمقدور الإنسان إعدادها. وكلّما استحوذتُ على قطعة من فطيرة اللقطين المثلّجة أو بعضٍ من سندويشة التاكو، كنت ملكاً بحدّ ذاته.

وكملكٍ يعتلي عرشه الخاصّ، أجلْتُ النظر في طعامي وابتسمت.

الفصل الخامس

5

الحادث

حلّ صيف العام 1971، ليذكّرني بأني لا زلت أعيش مع أمي.

لم أكن قد بلغتُ الحادية عشرة حينها، لكن بتّ، في معظم الأحيان، أتمكن من تحديد أنواع العقاب الذي ينتظرني. فلا أحصل على الطعام إن تجاوزت الوقت الذي حدّدته أمي لي لإنهاء أعمالي المنزلية. وتصفعني على وجهي إن نظرت إليها أو إلى أحد أولادها من دون إذنها. وكانت أمي تكرر معي ضرباً قديماً من ضروب العقاب أو تبتكر آخر جديداً شنيعاً، إن ضبطتني أسرق الطعام. وفي معظم الأحيان، كانت أمي مدركة أفعالها تماماً، فأرتقب خطوتها التالية. مع هذا، كنت آخذ حذري دوماً، وأشدّ جسدي متى اعتقدت أنها آتية نحوي.

ولّى حزيران وأقبل تموز، فبدأت معنوياتي تنبط. وكاد الطعام أن يستحيل وهماً لولا فضلات الفطور التي نادراً ما قدّمَت إليّ مهما جهدتُ في عملي. أما الغداء فلم أحصل عليه "يوماً". ولا أتناول العشاء، إلاّ مرة واحدة كل ثلاثة أيام.

وبعد أن صرت كالعبد، باتت أيام تموز كلها متشابهة في نظري، حتى تلك المميّزة منها. لم آكل منذ ثلاثة أيام. فقد توقفت الدروس بسبب العطلة الصيفية وتبخّرت معها خياراتي في إيجاد ما آكله. وكالمعتاد أثناء العشاء، جلست عند أسفل السلم واضعاً يديّ تحت أردافي صاغياً إلى أصوات "العائلة" تأكل.

فقد أمرتني أمي أن أجلس على يديّ وأحني رأسي إلى الخلف مثل "سجين حرب". لكنني، أحنيتُ رأسي إلى الأمام، يراودني شبه حلم بأنني واحد منهم – فردٌ من "العائلة". لا بدّ من أنني غفوت لأنني استيقظت فجأة على صراخ أمي تقول: "تعال إلى هنا! حرك قفاك!".

وما إن سمعتُ أمرها حتى رفعت رأسي وعدوت صاعداً السلم. صلّيت أن أحصل الليلة على ما آكله لأسكّن به جوعي.

شرعتُ أرفع أطباق العشاء عن الطاولة بعجلة، فسمعت أمي تستدعيني إلى المطبخ. أحنيت رأسي فيما راحت تملي عليّ إنجاز عملي في وقت محدّد.

– "أمامك عشرون دقيقة فقط! وإن تجاوزتها بدقيقة واحدة، لا بل ثانية، فسأدعك تتضور جوعاً مجدداً! أهذا مفهوم؟".

– "نعم، سيدتي".

ثم قالت بنزق: "أنظر إليّ عندما أكلّمك!!".

رفعت رأسي بروية مطيعاً أمرها. عندئذ، رأيت "راسل" يتأرجح جيئة وذهاباً على رجلها اليسرى. بدا أن نبرة أمي القاسية لم تضايقه. كان يحدّق إليّ بعينين باردتين. ومع أنه لم يكن إلاّ في الرابعة أو الخامسة من العمر، فقد أمسى "النازي الصغير"، يعمل

لحساب أمي، فيراقب كل ما أفعله ويحرص ألاّ أسرق الطعام.

وأحياناً كان يبتكر قصصاً عني، ويرويها لأمي كي يراني أُعاقَب. لم يكن الذنب ذنبه.عرفتُ أن أمي غسلت دماغه، لكن شعوري تجاهه أخذ يفتر، وصرتُ أكرهه بقدر ما يكرهني. ثم صرخت أمي: "أتسمعني؟ أنظر إليّ عندما أكلّمك!".

وفيما أنا أنظر إليها، تناولت أمي سكيناً حاداً عن حوض الغسل، وصاحت: "إن لم تنجز العمل في الوقت المحدد، فسوف أقتلك!".

لم تؤثر بي كلماتها تلك، إذ إنها تردّد الكلام نفسه منذ حوالى الأسبوع. راسل أيضاً لم ينزعج من تهديدها. وظلّ يتأرجح على رِجلها كما لو أنه يمتطي حصاناً خشبياً. من الواضح أنها لم تكن مسرورة بأسلوبها المتكرّر، لأنها ظلّت تضايقني بإلحاح مع مرور الوقت المحدد لي. تمنيتُ لو تُطبق فمها وتدعني أنهي عملي. كنتُ بأمس الحاجة إلى أن أنتهي في الوقت الذي حددته. أردت بشدة الحصول على ما آكله، وخشيت الخلود إلى النوم ليلة أخرى من دون طعام.

كان هنالك خطب ما، خطب جدي. حاولتُ تثبيت عينيّ على أمي. كانت تلوّح بالسكين بيدها اليُمنى. ومجدداً، لم يعتَرِني الخوف كلياً. فقد سبق لها أن فعلت هذا. وقلتُ في نفسي: "العينين! أنظر إليها مباشرة في العينين!".

وهذا ما كان، غير أن نظراتي لم تعنِ لها البتة. وأعلمتني غريزتي أنّ في الأمر خطباً ما. لم أشعر بأنها ستضربني، ولكن سَرى التوتر في جسدي كله. ثم فهمتُ ما الخطب مع اشتداد توتّري هذا. راحت أمي تتمايل إلى الأمام والخلف باهتزاز راسل من جهة،

ولحركة ذراعها والسكين في يدها من جهة أخرى. خلتُ للوهلة الأولى أنها ستسقط أرضاً.

حاولتْ استعادة توازنها، وأخذت تشتم راسل لينزل عن رِجلها، وتصيح بي في آنٍ معاً. بدا الجزء العلوي من جسدها ككرسي هزاز خرج عن السيطرة. فتصوّرت أن هذه العجوز الثملة ستهوي، ويلتصق وجهها بالأرض! فكّرت بذلك متغاضياً عن تهديداتها التي لا طائل منها. وركّزتُ انتباهي كلّه على وجه أمي، ثم رأيتُ رؤية مغشّاة وبطرف العين، شيئاً ما يطير من يدها؛ وإذا بي أشعر بألمٍ حادٍ يمزّق صدري. حاولت الصمود واقفاً على قدمي، لكن جسدي انهار أرضاً، وخيّم السواد على حقل رؤيتي.

وعندما استيقظتُ، شعرتُ بشيء دافئ يتدفّق من صدري. استغرق الأمر بضع لحظات لأعيَ أين كُنت. كنت جالساً على المرحاض، أتكئ بظهري إلى الخلف. نظرت إلى راسل الذي كان يغنّي، "دايفيد سيموت" وتفرّست في معدتي. كانت أمي جاثية على ركبتيها، تضمّد جرح معدتي وقد سال منه دم قاني اللون.

حاولت التفوه بالكلام، علمتُ أنها كانت حادثة. وأردت أن تعلم أمي بأنني أسامحها. لكني شعرتُ بأنني واهن الجسد لأتمكن من النطق. كان رأسي ينحني إلى الأمام، فأحاول أن أُبقيه مرفوعاً. ثم فقدتُ كل أثرٍ للزمن بعودتي إلى عالم الظلمة ثانياً.

وعندما استيقظتُ، كانت أمي لا تزال جاثية على ركبتيها، تلفّ الجزء السفلي من صدري بقطعة من القماش. كانت على يقين تام مما تفعله. فعندما كنت صغيراً، تعوّدتْ أمي أن تخبرنا أنا وورون

وستان كم كانت ترغب في أن تصير ممرضة إلى أن التقت بوالدي. ومتى واجهها حادث ما في المنزل، كانت تسيطر على الوضع سيطرة تامة. ولم أشك يوماً بقدراتها التمريضية.

انتظرت أن تضعني في السيارة وتتوجه بي إلى المستشفى. كنت متأكداً أنها ستفعل ذلك. إنها مسألة وقت وحسب. فانتابني شعور بالراحة. عرفتُ في صميم قلبي أن كل شيء انتهى، وأن تمثيلية العيش عبداً قد بلغت نهايتها. فأمي ستعجز عن الكذب بشأن ما حدث هذه المرة. أحسستُ بأن الحادثة ستُعتقني.

أمضت أمي ساعة من الوقت لتضميد جرحي. لم تتوشح عيناها بأي شعور بالندم. وخِلتُ أنها في النهاية، ستحاول مواساتي بصوتها العذب. غير أنها وقفت إزائي وقالت لي ببرودة إنني أملك نصف ساعة لأنتهي من غسل الأطباق. هززتُ رأسي، أحاول فهم ما قالته. هي ثوانٍ معدودة، وتلاشى قولها.

لم تكن أمي لِتُقرّ بما فعلت، تماماً كما حصل منذ سنوات عندما كسَرَتْ لي ذراعي.

ولم أمتلك الوقت الكافي لأُشفق على نفسي. كان الوقت يمر. فنهضتُ، تمايلتُ قليلاً ثم توجّهتُ إلى المطبخ. مزّقَ الألم أضلُعي مع كل خطوة، وتسرَّب الدم من قميصي التائي الرثّ. بلغتُ حوض الغسل أخيراً، فانحنيتُ فوقه ألهث ككَلبٍ عجوز.

شعرتُ بوجود أبي في غرفة الجلوس يقرأ الصحيفة مُقلّباً صفحاتها.

أخذتُ نفساً عميقاً مؤلماً آملاً أن أتمكن من الوصول إلى أبي. انقطعتْ أنفاسي وسقطتُ أرضاً. أيقنتُ أنه عليّ التنفس بشكل متقطّع

وببرهات قصيرة. أدركتُ غرفة الجلوس؛ كان بطلي يجلس عند أقصى الأريكة. وقفتُ إزاءه، أنتظر أن يقلب الصفحة فيراني. وما إن فعل، قلتُ له وأنا أُتمتم:

"بابا... أم... أمي طعنتني".

سألني: "لماذا؟"، ولم يتكبد عناء تحريك حاجبه حتى!

"قالت إنها سوف تقتلني إن لم أُنهِ غسل الأطباق في الوقت المحدد".

عندئذٍ، أوقف الزمن عجلته، وتناهى إليّ تنفّس أبي المتقطّع، وقد حجبت الصحيفة وجهه. ثم تنحنح قبل أن يقول: "حسناً... مِنْ... من الأفضل أن تعود إلى هناك وتغسل الأطباق". أملتُ رأسي إلى الأمام لأُلمِ كلماته. لم أستطع تصديق ما سمعته للتو. لا بُدّ أنه شعر باضطرابي، فرأيته يقذف بالصحيفة ويصيح قائلاً: "ربّاه! أتعلم أمك أنك هنا تتحدّث إليّ؟ من الأفضل لكَ أن تعود إلى هناك وتغسل الأطباق. اللعنة يا ولد! لسنا بحاجة إلى فعل ما قد يزيدها غضباً! لا أريدُ أن أعاني أثر غضبها الليلة...!". ثم صمت لبُرهة، أخفض صوته وتابع يهمس: "اسمع، اذهب إلى هناك واغسل الأطباق، ولن أخبرها بما قلته لي. سيكون هذا سرّنا الصغير. اذهب إلى المطبخ وحَسبْ، وأكمل غسل الأطباق. هيا! اذهب الآن قبل أن تضبطنا معاً! اذهب!".

وقفتُ قبالة أبي في صدمة تامة. لم يرفع نظره إليّ حتى! حَسبيَ لو يطوي زاوية الصفحة فقط، وينفذَ إلى عينيّ ليشعُرَ بألمي، وبحاجتي الماسّة إلى مساعدته. لكنني أعرف أن أمي تُحكم الطوق على عنقه، تماماً كما تتحكم بكل ما في منزلها. ويَعلمُ كلانا أيضاً ما ينصّ عليه قانون "العائلة": فعَدَم الإقرار بحصول أمر ما، يعني، بكل بساطة، أنه لم يحدث!

وفيما وقفتُ إزاء أبي لا أدري ما العمل، نظرتُ إلى أسفل وإذا بالدم يتقطّر على سجادة العائلة ويلطّخها. شعرتُ، في داخلي، أن أبي سيحملني بين ذراعيه ويأخذني بعيداً؛ حتى إنني تصوّرته يمزّق قميصه من الوسط ليكشف عن هويته الحقيقية قبل أن يطير مُحلّقاً كسوبرمان/كالرجل الخارق.

استدرتُ مبتعداً، وقد سقط من نفسي كل احترام أكنّهُ لوالدي. إنّ صورة والدي في ذهني على أنه المنقذ كانت صورة زائفة. لقد أثار فيّ غيظاً يفوق غيظي تجاه أمي. تمنيّت لو بمقدوري التحليق بعيداً، غير أن الألم المبرّح أبقاني في واقعي.

غسلتُ الأطباق بأسرع ما أتاح لي جسدي. أدركتُ أن تحريك ساعدي سبّب لي ألماً حاداً فوق معدتي. وإن انتقلتُ من حوض الغسل إلى حوض التشطيف، يسرِ ألمٌ آخر في أعضاء جسدي كلّها. كنتُ أشعر بضعفِ جسدي المُتردّي. وضاعت فرص حصولي على الطعام مع تجاوزي الوقت الذي حدّدته أمي لي.

أردتُ أن أستلقي وحسب، أن أكفّ عما أقوم به، غير أن الوعد الذي قطعته على نفسي منذ سنوات طوال، ظلّ يدفعني للمضي قُدماً.

أردتُ أن أبرهن لتلك الفاجرة أنها لن تهزمني إلا عند مماتي، وكنت عازماً على عدم الاستسلام للموت.

ثم أيقنتُ، أنني إن وقفتُ على رؤوس أصابعي وأحنيتُ الجزء العلوي من جسدي إلى الأمام، فسأزيل بعض الضغط عن الجزء السفلي من صدري. لذا، عمدتُ إلى غسل الأطباق ثم إلى شطفها بالماء دفعة واحدة، بدل غسلها واحداً تلو الآخر والتنقّل بين حوض الغسل وحوض

التشطيف. ثم جففّتها، غير أنني وجدت توضيبها عبئاً ثقيلاً. فالخزانات كانت فوق رأسي، وعرفتُ أن بلوغها سيسبّب لي ألماً مبرّحاً. كنتُ أمسك صحناً صغيراً في يدي. مددتُ رجليّ قدر الإمكان محاولاً رفع ذراعي فوق رأسي لأضع الصحن مكانه. كدتُ أبلغ الخزانة تقريباً، غير أن الألم كان كبيراً، فسقطتُ أرضاً.

كان قميصي قد تلطّخ بالدم كاملاً. وفيما حاولتُ النهوض مجدداً، شعرتُ بيديّ والدي القويتين تساعدانني. فأبعدته عني.

قال لي: "أعطِني الأطباق. سأضعها مكانها. من الأفضل أن تنزل إلى الطابق الأسفل وتبدّل قميصك". استدرتُ لا أتفوه بكلمة. نظرت إلى الساعة. استغرقني الأمر أكثر من ساعة ونصف الساعة لأنتهي من عملي. نزلت إلى الطابق الأسفل ببطء، أثبّتُ يدي اليُمنى بإحكام على الدرابزون. كنتُ أرى الدم يتسرّب من قميصي مع كل خطوة قمتُ بها.

وافتني أمي عند أسفل السلم. راحت تُمزّق قميصي، وكانت تقوم بذلك برفقٍ كبير. لكنها لم تواسِني. وأدركتُ أنه مجرد عملٍ بالنسبة لها. عهدتُها تُعامل الحيوانات بعطفٍ أكبر من عطفها عليّ. كنتُ واهن القوى لدرجة أني انحنيتُ على صدرها لاشعورياً فيما كانت تُلبسني قميصاً قديماً كبير الحجم. توقعتها أن تضربني، لكنها سمحت لي أن أتكئ عليها لبضع ثوانٍ. ثم أجلستني عند أسفل السلم، ورحلت. ثم عادت بعد دقائق معدودة تحمل بيدها كوب ماء. تجرّعته بأسرع ما يمكنني. وعندما انتهيت، أخبرتني أنها لن تُقدّم لي الطعام على الفور، بل بعد مرور عدة ساعات، إذ أكون قد شعرتُ بتحسّن. كان صوتها رتيب النبرة، فاتراً.

اختلستُ نظرة إلى الخارج، وتراءى إليّ شفق الأفق تواريه ستارة الظلمة. قالت لي أمي إنه بإمكاني أن ألهو مع الصبيان خارجاً على رصيف المُشاة المقابل للمرآب. كان ذهني مشوّشاً، لَزِمني بعض الوقت لأُدركَ ما قالتهُ. وأصرّت قائلةً: "اذهب يا دايفيد. هيا اذهب". ساعدتني على الخروج. مشيتُ ببطء شديد من المرآب إلى الرصيف. نظر إليّ إخوتي مصادفةً، ولم يكترثوا لي، لانهماكهم بإشعال الشرارات النارية احتفالاً بالرابع من تموز. مرّ الوقت واضحت أمي أكثر تعاطفاً حيالي، فوضعت يديها على كتفي، ورُحنا نُشاهدُ إخوتي يرسمون الرقم ثمانية بواسطة الشرارات.

ثم سألتني: "أتودّ الحصول على واحد؟". أومأتُ برأسي إيجاباً. فأمسكتْ بيدي، انحنت وأشعلتْ لي الشرارة. عندئذٍ، حضرتني رائحةُ العطر الذي اعتادت أمي أن تضعه منذ سنوات عديدة. لكنها، لم تعد تضع العطور أو تتبرّج منذ زمن بعيد...

رُحتُ ألعب مع أخويّ، واستحوذت عليّ فكرة واحدة فقط: أمي وذاك التغيير الذي طرأ على معاملتها لي. فتساءلتُ: "أتحاول التعويض عن كل ما حدث لي؟ هل حلّت نهاية مكوثي في القبو؟ هل عُدتُ مجدداً إلى كنف العائلة؟". لبضع دقائق لم آبه للماضي، وبدا أن أخويّ تقبّلا حضوري بينهما، وشعرتُ بما خِلتُ أنه يرقدُ دفيناً للأبد: الصداقة والدفء اللذان يربطانني بهما.

وانطفأت الشرارة في غضون ثوانٍ معدودة. فاستدرتُ نحو الشمس المتوارية. مضى وقتٌ طويل مُذ شاهدت الغروب. فأغمضتُ عينيّ محاولاً استشفاف ما أمكنني من الأشعة الذهبية. وللحظات معدودة،

تلاشى كل ما يعتريني من ألمٍ وجوعٍ وبؤس. شعرتُ بدفء كبير، وبالحياة تختلج فيّ. ثم فتحتُ عينيّ لأُخلِّدَ هذه اللحظة.

قبل أن تخلد أمي إلى الفراش، أعطتني بعض الماء والقليل من الطعام. شعرتُ وكأنني حيوان ضعيف يداوونه. لكني لم آبه.

وفي المرآب، استلقيت على سريري النقال. حاولتُ ألاّ أفكّر بالألم. كان من المستحيل تجاهله إذ سرى في جسدي بكامله. أضناني التعب في النهاية واستسلمتُ للنوم. راودتني كوابيس عديدة في الليل. فاستيقظتُ مرتعباً، يتصبب مني عرقٌ بارد. ثم سمعت صوتاً من الخلف، فارتعبتُ. كانت أمي. انحنت فوقي تضع على جبيني قطعة قماش باردة. أخبرتني أنني كنتُ أعاني الحمى خلال الليل. كنت شديد الضعف والتعب لأُجيبها. لم أستطع التفكير إلاّ بالألم في جسدي. وبعد قليل، رجعتْ أمي إلى غرفة نوم إخوتي في الطابق الأسفل، والتي كانت الأقرب إلى المرآب. شعرتُ بالأمان لأنها على مقربة مني تسهر عليّ.

ثم سرعان ما عُدتُ إلى الظلمة، يتملّكني الأرق. وراودتني أحلام مريعة عن وابلٍ من الأمطار الحمراء الساخنة تنهال عليّ، وقد بلّلتني الأمطار لغزارتها. حاولتُ إزالة الدم عني، لكنه كان يلطّخ جسدي مجدداً وبسرعة. وعندما صحوتُ في اليوم التالي، نظرتُ إلى يديّ. كانتا مكسوتين بقشرة من الدم الجاف، وكان قميصي أحمر بالكامل. تحسستُ بعض الدم الجاف على أماكن مختلفة من وجهي. ثم تناهى إليّ صوت باب غرفة النوم يُفتحُ خلفي. فاستدرتُ ورأيتُ أمي تتجه نحوي. توقعتُ أن تمنحني المزيد من العطف كَليلة أمس، لكنه كان أملاً خائباً. لم تمنحني شيئاً وطلبتْ مني بنبرة جافة أن

أنظّف نفسي وأبدأ أعمالي المنزلية. وبصعودها السُّلَّم، عرفتُ أن شيئاً لم يتغيّر. كنتُ لا أزال لقيط العائلة.

لازمتني الحمى ثلاثة أيام بعد "الحادثة". لم أجرؤ حتى على طلب الأسبيرين من أمي وخاصة لأن أبي كان في العمل. علمتُ أنها عادتْ إلى ما كانت عليه.

اعتقدتُ أنني أُصبتُ بالحمى نتيجة الأذى واتساع الجرح غير مرة منذ تلك الليلة. فزحفتُ نحو مغسلة المرآب بهدوء تام كي لا تسمعني أمي وتناولتُ خرقة القماش الأنظف التي استطعتُ إيجادها بين كومة الخِرق. ثم فتحتُ الحنفية بشكل كافٍ لتتنزل منها بضع قطرات من المياه فتُبلّل الخِرقة. جلستُ ورفعتُ عني قميصي الأحمر الرطب. لمستُ جرحي، فجفّلني الألم. تنفستُ ملء رئتي وقمتُ بالقرص على الجرح برفقٍ تام. كان الألم حاداً، حاداً جداً لدرجة أني ألقيتُ برأسي نحو الأرض وكدتُ أرتطم بالإسمنت البارد. وعندما نظرتُ إلى معدتي مجدداً، رأيت مادة صفراء تميل إلى البياض تنزّ من الجرح الأحمر الملتهب. لم أكن أعرف الكثير عن هذه الأمور، لكني عرفت أنني مصاب بالتهاب. فأخذتُ أصعد إلى الطابق الأعلى لأطلب من أمي أن تنظفني. بلغتُ منتصف السلّم وتوقفتُ قائلاً: "لا! لستُ بحاجة إلى مساعدة تلك المرأة الفاجرة!". أعرف ما يكفي من الإسعافات الأولية لتنظيف جرح ما. فشعرتُ بثقةٍ بالنفس لأنني أستطيع القيام بذلك وحدي. أردتُ أن أتولى أمري بنفسي. لم أشأ الاتكال على أمي أو منحها المزيد من السيطرة عليّ أكثر مما سبق لها أن فعلت.

بلّلتُ خرقة القماش مجدداً وقرّبتها إلى الجرح. تردّدتُ قبل أن ألمسه. كانت يداي ترتجفان من الخوف.

راحت الدموع تفيض على وجنتي. شعرتُ وكأنني طفل، فكرهتُ نفسي. وقلتُ أخيراً: "إن بكيتَ تموت! داوِ جرحكَ الآن!". أدركتُ أن جرحي لا يهدد حياتي. أقنعتُ نفسي بعدة أمور كي أحجم ألمي. وقمتُ بالعمل قبل أن تخور عزيمتي. فتناولتُ خرقة أخرى، لففتها وكممتُ فمي بها. ركّزتُ انتباهي كله على إبهامي والسبابة من يدي اليُسرى، وقرصتُ الجلد حول جرحي. رُحتُ أُزيل القيح بيدي الأخرى. وكرّرتُ العملية إلى أن سال الدم مجدداً، عندئذٍ، أزلتُ الدم فقط. زال معظم القيح. لكن الألم الذي نجم عن عملية القرص والتنظيف فاق طاقتي. غير أنني كتمتُ صراخي عبر القضم بإحكام على الخِرقة. شعرتُ وكأنني معلّق من على جرف صخري. وما إن انتهيتُ حتى فاضت دموعي وبلّلت قبّة قميصي.

خشيتُ أن تأتي أمي وتراني لا أجلس عند أسفل السلم. فنظفت كل الفوضى، وتوجهت إلى حيث يجدر بي أن أجلس، تارة أزحف وطوراً أمشي. وقبل أن أجلس على يديّ، تحققتُ من القميص، لم تتلطخ الضمادة إلاّ بقطرات دمٍ معدودة. أمِلتُ أن يشفى جرحي. شعرت بذلك بطريقة ما. وشعرتُ بالفخر. تصوّرتُ نفسي شخصية في كتاب هزلي تغلّبت على مشقّات كبيرة وظلّت على قيد الحياة. ثم سرعان ما انحنى رأسي إلى الأمام وغفوتُ. حلمتُ أنني أطير، مجتازاً ألواناً صارخة، وأنني ارتديتُ معطفاً أحمر... حلمتُ أنني كنتُ سوبرمان.

الفصل السادس

6

أثناء غياب أبي

بعد حادثة السكين، أصبح والدي يمضي وقتاً أقل في المنزل ووقتاً أكثر في العمل. وكان يبتكر الأعذار للعائلة، لكني لم أصدقه أبداً. كنت أرتعد غالباً من الخوف فيما أنا جالس في الكاراج متمنياً عدم رحيله لسبب ما. فعلى رغم كل ما حدث، كنت لا أزال أشعر أن والدي هو حارسي. فعند وجوده في المنزل، كانت أمي تلحق بي نصف ما كانت تفعله حين يرحل والدي.

أثناء وجود والدي في المنزل، اعتاد على مساعدتي في غسل أطباق المساء. كان أبي يغسل الصحون وأنا أجففها. وأثناء عملنا معاً، كنا نتحدث بصوت خافت بحيث تعجز أمي وبقية الصبية عن سماعنا. وأحياناً، كانت تمرّ عدة دقائق من دون لفظ أية كلمة. أردنا التأكد من خلو الساحة فعلاً.

كان أبي يستهل الحديث على الدوام: "كيف حالك أيها النمر؟"، كان يقول.

وكلما أسمع الاسم القديم الذي استعمله والدي حين كنت ولداً صغيراً، كانت الابتسامة تعلو دوماً وجهي. "أنا بخير"، كنت أجيبه.

"هل لديك أي شيء لتأكله اليوم؟"، كان يسألني غالباً. وكنت أومئ برأسي عادة في حركة سلبية.

"لا تقلق"، يقول لي، "سوف نتخلص أنت وأنا يوماً ما من منزل المجانين هذا".

عرفت أن والدي يكره العيش في المنزل، وشعرت أنها غلطتي. أخبرته أني سأكون ولداً صالحاً ولن أسرق الطعام أبداً بعد اليوم. أخبرت والدي أني سأحاول بكدّ أكبر وأنجز واجباتي بصورة أفضل. وكلما قلت له هذه الأشياء، كان يبتسم ويطمئنني بأنها ليست غلطتي.

أحياناً، فيما كنت أجفف الأطباق، كنت أشعر بنفحة جديدة من الأمل. عرفت أن أبي لن يتخذ على الأرجح أي فعل ضد أمي، لكني كنت أشعر بالأمان عند الوقوف بقربه.

ومثل كل الأشياء الجيدة التي تحدث معي، وضعت أمي حداً لمساعدة والدي لي في غسل الأطباق. فقد أصرّت على أن "الولد" لا يحتاج إلى أية مساعدة. وقالت إن والدي يخصص لي الكثير من الانتباه فيما لا ينتبه كثيراً لبقية أفراد العائلة. ومن دون أي عراك، استسلم والدي. لقد أصبحت أمي الآن مسيطرة على كل شخص في المنزل.

وبعد فترة وجيزة، لم يعد أبي يمكث في المنزل حتى في أيام العطلة. كان يأتي فقط لبضع دقائق. وبعد مشاهدة إخوتي، كان يبحث عني أينما كنت أنجز واجباتي ليقول لي بضع عبارات ومن ثم يرحل. لم يكن والدي بحاجة إلى أكثر من 10 دقائق للدخول إلى المنزل والخروج منه، ليعود بعدها إلى عزلته التي يعثر عليها غالباً في الحانة. حين كان أبي يتحدث إليّ، كان يخبرني أنه يعدّ خططاً

لنا الاثنين حتى نرحل. كان هذا يدفعني إلى الابتسام، لكني عرفت في قرارة نفسي أن الأمر مجرّد خيال.

وفي أحد الأيام، ركع أبي أمامي ليخبرني عن مدى أسفه. نظرت إلى وجهه. أخافني التغير الذي طرأ على والدي. فقد كانت الهالات السوداء الداكنة تحيط بعينيه، فيما تورّد وجهه وعنقه باللون الأحمر القوي. أما كتفا والدي اللتان كانتا صلبتين فيما مضى فقد أصبحتا الآن مترهلتين ومنحنيتين. بدأ الشعر الرمادي يغزو رأسه الذي كان مكسواً قبلاً بالشعر الأسود اللامع. وقبل أن يغادر في ذلك اليوم، طوّقت خصره بذراعيّ. لم أعرف متى سأراه مجدداً.

بعد الانتهاء من واجباتي في ذلك اليوم، هرعت إلى الطابق الأسفل. فقد طُلب مني غسل ثيابي الرثة ومجموعة أخرى من الخرق البالية الكريهة الرائحة. لكن رحيل والدي في ذلك اليوم جعلني حزيناً جداً بحيث دفنت نفسي بين كومة الخرق البالية ورحت أبكي. بكيت حتى يعود والدي ويأخذني بعيداً. وبعد دقائق قليلة من التعزية الذاتية، هدأت وباشرت في فرك ثيابي البالية. فركت الثياب حتى خرج الدم من مفاصل أصابعي. لم أعد أكترث أبداً لوجودي. فمنزل أمي لا يطاق. تمنيت لو أني أستطيع تدبر شيء للهروب مما أسميه اليوم "منزل المجانين".

وفي فترة من الفترات التي كان والدي فيها بعيداً عن المنزل، أبقتني أمي من دون طعام لعشرة أيام متتالية تقريباً. فمهما حاولت الالتزام بمواعيدها النهائية، لم أفلح قط في ذلك. وكانت النتيجة الحرمان من الطعام. كانت أمي تحرص تماماً على التأكد من عدم

قدرتي على سرقة أي طعام. فقد كانت تنظف طاولة الطعام بنفسها، وتضع فضلات الطعام في سلة النفايات. وكانت تفتش سلة النفايات كل يوم قبل أن أفرغها في الطابق الأسفل. كما أقفلت الثلاجة الموجودة في الكاراج بمفتاحها الذي احتفظت به معها. اعتدت على البقاء من دون طعام لفترات تصل إلى ثلاثة أيام، لكن هذا الوقت الطويل كان غير محتمل البتة. كان الماء وسيلتي الوحيدة للبقاء على قيد الحياة. وحين كنت أملأ صينية مكعبات الثلج المعدنية من البراد، كنت أضع زاوية الصينية على فمي. وفي الطابق الأسفل، كنت أزحف إلى حوض الاستحمام وأفتح الصنبور بروية. كنت أصلّي كي لا يتذبذب الأنبوب وينذر أمي، وأمتص المعدن البارد بعناية إلى أن تمتلئ معدتي بالكامل لدرجة أشعر أنها ستنفجر.

وفي اليوم السادس، شعرت بضعف كبير حين استيقظت على سريري النقال، بحيث استطعت النهوض بصعوبة كبيرة. أنجزت واجباتي ببطء شديد. شعرت بخدر قوي. وأصبحت أفكاري غير واضحة البتة. بدا لي أني أحتاج إلى دقائق عدّة لأفهم كل عبارة تصرخها أمي في وجهي. وحين كنت أرفع رأسي ببطء لأنظر إلى أمي، كنت أدرك أن الأمر مجرّد لعبة بالنسبة إليها – لعبة كانت تستمتع بها تماماً.

"أوه، أيها الولد الصغير المسكين"، قالت أمي بسخرية. ثم سألتني كيف أشعر، وانفجرت ضحكاً حين توسلت إليها للحصول على الطعام. وفي نهاية اليوم السادس، والأيام التي تلت، تمنيت من كل قلبي أن تطعمني أمي شيئاً ما، أي شيء. فقد وصلت إلى مرحلة لم أعد أهتم بطبيعة الطعام.

وفي إحدى الأمسيات، قرابة انتهاء "لعبتها"، وبعد إنهاء واجباتي، رمت أمي طبقاً من الطعام أمامي. وجدت الفضلات الباردة بمثابة وليمة حقيقية. لكنني شعرت بالخوف. فلم أصدق ما يجري. "دقيقتان!"، صرخت أمي. "أمامك دقيقتان حتى تأكل. هذا كل شيء". وبسرعة البرق، أمسكت بالشوكة، لكن قبل أن يلامس الطعام فمي، أبعدت أمي الطبق عني وأفرغته في سلة النفايات. "فات الأوان"، صرخت بأعلى صوتها.

وقفت أمامها مصعوقاً. لم أعرف ما يجب قوله أو فعله. وكل ما استطعت التفكير به كان "لماذا؟". لم أفهم لماذا تعاملني أمي بهذه الطريقة. لقد كنت قريباً جداً واستطعت شمّ رائحة كل كسرة طعام. عرفت أنها تريدني أن أستسلم، لكنني نهضت بسرعة وحبست دموعي.

جلست وحيداً في الكاراج، وشعرت أني أفقد السيطرة على كل شيء. كنت أتوق إلى الطعام. أردت والدي. لكنني أردت أكثر من أي شيء آخر ذرّة واحدة من الاحترام؛ القليل من الكرامة. جلست هناك على يديّ واستطعت سماع إخوتي يفتحون البراد للحصول على حلوياتهم. كنت أكره ذلك. نظرت إلى نفسي. كانت بشرتي صفراء اللون، وعضلاتي ضعيفة ونحيلة جداً. وكلما سمعت أحد إخوتي يضحك عند مشاهدة برنامج تلفزيوني، كنت ألعن أسماءهم. "أيها الأوغاد المحظوظون! لماذا لا تناوب أمي الأدوار وتضرب واحداً منهم بدلاً مني؟". بكيت على نفسي فيما رحت أخرج مشاعر الكراهية من داخلي.

بقيت من دون طعام قرابة العشرة أيام. كنت قد انتهيت للتو من أطباق العشاء حين كررت أمي لعبتها: "أمامك دقيقتان لتأكل". احتوى الطبق على بضع كسرات قليلة فقط من الطعام. شعرت أنها ستبعد الطبق مجدداً، ولذلك تصرفت بروية. لم أعطِ أمي أية فرصة لتبعد الصحن عني مثلما فعلت في الليالي الثلاث السابقة. فقد أمسكت بالطبق وابتلعت الطعام بسرعة من دون مضغه. وفي غضون ثوانٍ قليلة، انتهيت من تناول كل ما كان موجوداً في الطبق ولعقته حتى أصبح نظيفاً تماماً. "أنت تأكل مثل الحيوان!"، قالت أمي. أحنيت رأسي وتصرفت كما لو أني مهتم بكلماتها. لكني ضحكت عليها في قرارة نفسي وقلت لنفسي: "اللعنة عليك! قولي ما تشائين! لقد حصلت على الطعام!"

كانت أمي تمارس لعبة أخرى معي أثناء غياب والدي. أرسلتني لتنظيف الحمام مع مواعيدها النهائية الاعتيادية. لكنها وضعت هذه المرة دلواً مليئاً بمزيج الأمونيا والكلوروكس في الغرفة معي، وأغلقت من ثم الباب. حين فعلت أمي هذا للمرة الأولى، أخبرتني أنها قرأت عنه في الصحيفة وتريد تجربته. ورغم أني تصرفت كما لو أني خائف، لم أكن خائفاً فعلاً. كنت أجهل ما سيحدث. لكن حين أغلقت أمي الباب وطلبت مني عدم فتحه، بدأت أقلق فعلاً. كانت الغرفة مغلقة وبدأ الهواء يتغير بسرعة. ركعت في زاوية الحمام على يديّ وركبتيّ وحدّقت في الدلو. شاهدت ضباباً رمادياً ناعماً يلتفّ كالدوامة نحو السقف. وحين تنشقت الدخان، انهرت وبدأت التقيؤ. شعرت أن النار مشتعلة في حنجرتي، وفي غضون دقائق

قليلة، أصبحت متقرّحة. كما أن الغاز المنبعث من تفاعل مزيج الأمونيا والكلوروكس جعل عينيّ تدمعان. خشيت ألا أتمكن من الالتزام بالمواعيد النهائية التي فرضتها أمي لتنظيف الحمام.

وبعد مرور بضع دقائق إضافية، شعرت أني سأتقيأ. عرفت أن أمي لن تستسلم وتفتح الباب. لذا، توجّب عليّ استعمال رأسي للنجاة من لعبتها الجديدة. استلقيت على الأرض ومددت جسمي بالكامل. استعملت قدميّ ودفعت بالدلو إلى جهة الباب. فعلت ذلك لسببين: فقد أردت الدلو بعيداً عني قدر الإمكان. وإذا فتحت أمي الباب، أردتها أن تشمّ هي أيضاً جرعة من دوائها الخاص. جلست في الزاوية المقابلة من الحمام، ووضعت خرقة التنظيف فوق فمي وأنفي وعينيّ. لكن قبل تغطية وجهي، حرصت على تبليل الخرقة في كرسي الحمام. فلم أجرؤ على فتح الصنبور في المغسلة خشية أن تسمع أمي ذلك. رحت أتنفس عبر قطعة القماش، وشاهدت دوامة الغاز وهي تقترب أكثر فأكثر من الأرض. شعرت أني مسجون في غرفة غاز. فكّرت من ثم في فتحة التدفئة الصغيرة الموجودة في الأرض قرب قدميّ. عرفت أنها تعمل ومن ثم تتوقف كل بضع دقائق. لذا، وضعت وجهي قرب الفتحة وحاولت استنشاق كل الهواء الذي تتسع له رئتاي. وبعد نصف ساعة تقريباً، فتحت أمي الباب وطلبت مني إفراغ الدلو في بالوعة الكاراج قبل أن تفوح الرائحة في منزلها. وفي الطابق الأسفل، تقيأت الدم لساعة تقريباً. وبين كل عقابات أمي، كانت غرفة الغاز الأشد كرهاً بالنسبة إليّ.

قرابة انتهاء الصيف، شعرت أمي بالضجر حتماً من العثور على

طرق جديدة لتعذيبي في المنزل. في أحد الأيام، بعد أن أنهيت كل واجباتي الصباحية، أرسلتني لجزّ العشب بالأجرة. لم يكن ذلك روتيناً جديداً بالكامل. ففي العطلة المدرسية لمناسبة عيد الفصح في فصل الربيع الماضي، أرسلتني أمي أيضاً لجزّ العشب. فرضت حصة نسبية على مدخراتي وطلبت مني إعادة المال إليها. استحال عليّ جني الحصة النسبية ولذلك سرقت ذات مرة تسعة دولارات من مدخرات فتاة صغيرة كانت تعيش في الجوار. وبعد ساعات قليلة، كان والد الفتاة يطرق على باب منزلنا. أعادت أمي المال له بلا شك وألقت اللوم عليّ. وبعد أن غادر الرجل، ضربتني إلى أن أصبح لوني أزرق وأسود. لقد سرقت المال فقط لتوفير حصتها.

تبين أن خطة جز العشب لهذا الصيف ليست أفضل مما كانت عليه خلال عطلة عيد الفصح. انتقلت من باب إلى آخر لأسأل الناس ما إذا كانوا مهتمين في جزّ حدائقهم. لكن أحداً منهم لم يكن مهتماً. لا شك في أن ثيابي البالية وذراعيّ النحيلتين جعلتني أبدو مثيراً للشفقة. لذا، أعطتني إحدى السيدات وجبة غداء في كيس ورق بني وطلبت مني الرحيل. وفي منتصف الشارع تقريباً، وافق زوجان على جزّ حديقة منزلهما. وبعد الانتهاء، بدأت الركض للعودة إلى منزل أمي، وأنا أحمل الكيس البني معي. قررت إخفاءه قبل أن يصبح في قبضتها. لكني لم أفلح في ذلك. فقد كانت أمي تتجول في سيارتها وألقت القبض عليّ مع الكيس. لكن قبل أن تفلح أمي في وقف سيارتها، رفعت يديّ في الهواء كما لو أني مجرم. أذكر أني تمنيت لو أن الحظ يحالفني لمرة واحدة فقط.

خرجت أمي من سيارتها وأمسكت بالكيس البني بإحدى يديها فيما ضربتني بشدة باليد الأخرى. دفعتني داخل السيارة وتوجهت إلى المنزل الذي أعدّت لي سيدته الطعام. لم تكن المرأة في المنزل. كانت أمي مقتنعة أني تسللت إلى منزل السيدة وحضّرت غدائي بنفسي. وعلمت أن الاستيلاء على الطعام كان أكبر جريمة. لذا، ألقيت اللوم على نفسي بصمت لأني لم أخبئ الطعام قبلاً.

بعد العودة إلى المنزل، تركني العقاب الاعتيادي متمدداً على الأرض. طلبت مني أمي بعدها الجلوس خارجاً في الفناء الخلفي أثناء اصطحاب "أولادها" إلى حديقة الحيوان. لكن المكان الذي أمرتني أمي بالجلوس فيه كان مغطى بصخور قطرها إنش واحد تقريباً. فقدت الدورة الدموية في معظم أنحاء جسمي فيما جلست على يديّ في وضعية "سجين الحرب" الاعتيادية. بدأت أتخلى عن الله. شعرت أنه يكرهني بلا ريب. فأي سبب آخر يمكن أن يكون وراء حياة مثل حياتي؟ بدت كل جهودي لمجرد الصمود والبقاء على قيد الحياة عديمة الجدوى. وكانت محاولاتي للتقدم خطوة واحدة على أمي غير مجدية البتة. فثمة ظل أسود يسيطر دائماً عليّ.

حتى الشمس بدت تهرب مني حين اختبأتْ وراء طبقة سميكة من الغيوم فوق رأسي. أحنيت كتفيّ، وانعزلت في وحدة أحلامي. لا أعرف مقدار الوقت الذي مرّ، لكني استطعت لاحقاً سماع الصوت المميز لسيارة أمي وهي تعود إلى الكاراج. لقد انتهى وقت جلوسي على الصخور. تساءلت عما كانت تخططه لي أمي في المرحلة التالية. صلّيت ألا تكون غرفة غاز أخرى مجدداً. صرختْ لي من

الكاراج وطلبت مني لحاقها إلى الطابق الأعلى. قادتني إلى الحمام. انهار قلبي. شعرت أنه حكم عليّ بالموت. بدأت أستنشق كميات كبيرة من الهواء النقي مدركاً أني سأحتاج إليها قريباً.

لكني تفاجأت بعدم وجود أي دلو أو قناني في الحمام. "هل نجوت من الفخ" سألت نفسي. بدا هذا سهلاً جداً. شاهدت أمي بخجل وهي تفتح صنبور المياه الباردة في المغطس. ظننت أنه من الغريب أن تكون نسيت فتح صنبور المياه الساخنة أيضاً. وحين امتلأ المغطس بالمياه الباردة، انتزعت أمي ملابسي وأمرتني بالجلوس في المغطس. دخلت إلى المغطس واستلقيت فيه. شعرت بخوف بارد يعبر كل جسمي. "أخفض نفسك"، صرخت أمي. "ضع وجهك في الماء هكذا!". انحنت بعدها إلى الأمام وأمسكت عنقي بيديها وأقحمت رأسي تحت الماء. بدأت التخبط والركل بدافع الغريزة، وأنا أحاول بيأس إخراج رأسي من الماء بحيث أستطيع التنفس. لكن قبضتها كانت قوية جداً. فتحت عينيّ تحت الماء. استطعت مشاهدة الفقاقيع وهي تخرج من فمي وتطفو إلى السطح فيما أنا أحاول الصراخ. حاولت برم رأسي من جانب إلى آخر حين لاحظت أن الفقاقيع تصبح أصغر فأصغر. بدأت أشعر بالوهن. وفي محاولة يائسة، وصلت إلى الأعلى وأمسكت بكتفيها. لا شك في أن أصابعي انغرزت فيهما لأن أمي أفلتتني. نظرت إليّ بازدراء وهي تحاول التقاط أنفاسها. "والآن، دع رأسك تحت الماء، وإلا سيكون الوقت أطول في المرة التالية!".

غمرت رأسي، وأبقيت منخريّ فوق سطح الماء تقريباً. شعرت أني تمساح في مستنقع. حين غادرت أمي الحمام، أصبحت خطتها

أكثر وضوحاً بالنسبة إليّ. فحين تمددت في المغطس، أصبحت المياه باردة على نحو لا يطاق. بدا وكأني داخل البراد. شعرت بخوف كبير من أمي ولذلك أبقيت رأسي تحت سطح الماء كما أمرتني.

مرّت الساعات وبدأت التجاعيد تظهر في بشرتي. لم أجرؤ على لمس أي جزء من جسمي في محاولة لتدفئته. رفعت رأسي خارج الماء، بعيداً كفاية عن السطح للسماع بصورة جيدة. وكلما سمعت شخصاً يمشي في الممر خارج الحمام، كنت أعيد رأسي مجدداً إلى البرودة.

كانت الخطوات التي سمعتها عادة تعود إلى أخويّ وهما متوجهان إلى غرفة نومهما. وأحياناً، كان يدخل أحدهما إلى الحمام لاستعمال المرحاض. كانا يكتفيان بالتحديق إليّ ويهزّان رؤوسهما ويذهبان بعيداً. حاولت التخيل أني في مكان آخر، لكني لم أستطع الاسترخاء كفاية للتمتع بأحلام اليقظة.

قبل أن تجلس العائلة لتناول العشاء، جاءت أمي إلى الحمام وطلبت مني الخروج من المغطس وارتداء ملابسي. استجبت على الفور، وأمسكت بمنشفة لتجفيف جسمي. "أوه، لا"، صرخت. "ارتدِ ملابسك مثلما أنت". أطعت أمرها من دون أي تردد. كانت ثيابي مبللة بالماء حين نزلت إلى الطابق الأسفل للجلوس في الفناء الخلفي مثلما طلب مني. بدأت الشمس تغيب، لكن نصف الفناء ما زال معرضاً لأشعة الشمس المباشرة. حاولت الجلوس في مساحة مشمسة، لكن أمي أمرتني بالمكوث في الظل. في زاوية الفناء الخلفية، فيما كنت جالساً في وضعيتي الاعتيادية، بدأت أرتعد. أردت فقط بضع ثوانٍ من الحرارة. لكن مع مرور الدقائق، كانت فرصي

للحصول على الجفاف تتضاءل أكثر وأكثر. استطعت سماع صوت "العائلة" من النافذة العلوية وهم يمررون الأطباق المليئة بالطعام إلى بعضهم بعضاً. وبين الحين والآخر، كانت ضحكة كبيرة تخرج من النافذة. بما أن والدي كان في المنزل، عرفت أن الطعام الذي طهته أمي كان جيداً. أردت برم رأسي والنظر إلى الأعلى لمشاهدتهم يأكلون، لكني لم أجرؤ على ذلك. عشت في عالم مختلف. لم أستحق حتى إلقاء نظرة على الحياة الجيدة.

وبسرعة، أصبح عقاب المغطس والفناء الخلفي روتيناً. حين كنت أستلقي في المغطس، كان أخواي يحضران أصدقائهما إلى الحمام للنظر إلى شقيقهما العاري. وكان أصدقائهما يسخرون غالباً مني. "ماذا فعل هذه المرة؟"، كانوا يسألون. وفي معظم الأحوال، اكتفى أخواي بهزّ رؤوسهما والقول: "لا نعرف".

مع بداية المدرسة في الخريف، جاء أمل الهروب المؤقت من حياتي المخيفة. حظي صف الرابع خاصتنا بمعلّمة بديلة خلال الأسبوعين الأولين. وقالوا لنا إن الأستاذ الأصلي كان مريضاً. كانت المعلّمة البديلة شابة أكثر من بقية الموظفين، وبدت أكثر ليونة وتساهلاً. وفي نهاية الأسبوع الأول، وزعت البوظة على التلامذة الذين كان سلوكهم جيداً. لم أحصل على أي شيء في الأسبوع الأول، لكني بذلت جهداً أكبر وحصلت على مكافأتي في نهاية الأسبوع الثاني. أدارت المعلمة الجديدة "الأغاني المشهورة" في مسجلتها الصغيرة وراحت تغني للصف. لقد أحببناها فعلاً. وحين جاء بعد ظهر يوم الجمعة، لم أشأ أن أرحل. بعدما رحل كل

التلامذة، انحنت بالقرب مني وأخبرتني أنه يجدر بي الذهاب إلى المنزل. عرفت أني ولد يواجه مشكلة. أخبرتها أني أريد البقاء معها. أمسكتني للحظة، ثم نهضت وأسمعتني الأغنية التي أحبها كثيراً. غادرت بعد ذلك. وبما أني تأخرت، ركضت إلى المنزل بأسرع ما يمكن وأنجزت واجباتي بسرعة كبيرة. وحين انتهيت، أرسلتني أمي إلى الفناء الخلفي للجلوس على المقعد الإسمنتي البارد.

في يوم الجمعة ذاك، نظرت إلى الضباب الكثيف الذي يغطي الشمس وبكيت في داخلي. لقد كانت المعلمة البديلة لطيفة جداً معي. عاملتني مثل شخص حقيقي، وليس مثل قطعة من القذارة في البالوعة. فيما جلست خارجاً أشعر بالأسى على نفسي، تساءلت عن مكانها وعما تفعله. لم أفهم الأمر في ذلك الوقت، لكني تعلقت بها.

عرفت أني لن أحصل على الطعام في تلك الليلة أو التي بعدها. فبما أن والدي لم يكن في المنزل، سوف أواجه نهاية أسبوع سيئة. جلست في الهواء البارد في الفناء الخلفي واستطعت سماع أصوات أمي وهي تطعم إخوتي. لكني لم أهتم. أغلقت عينيّ واستطعت مشاهدة الوجه المبتسم لمعلمتي الجديدة. في تلك الليلة، فيما جلست أرتعد في الخارج، نجح جمالها ولطافتها في إبقائي دافئاً.

بحلول شهر تشرين الأول، كانت حياتي الكئيبة في أوجها. فقد كان الطعام نادراً في المدرسة. وكنت فريسة سهلة للمستأسدين في المدرسة الذين كانوا يضربونني على مزاجهم. وبعد المدرسة، توجب عليّ الركض إلى المنزل وإفراغ محتويات معدتي لتفحصها أمي. وأحياناً، كانت تجبرني على الشروع في واجباتي على الفور.

كانت تملأ المغطس أحياناً بالماء. وإذا كانت فعلاً في مزاج جيد، كانت تحضر لي مزيج الغاز في الحمام. وإذا تعبت من وجودي حولها في المنزل، كانت ترسلني لجزّ حدائق الناس بالأجرة، ولكن بعد أن تضربني. ضربتني في بعض الأحيان بسلسلة الكلب. كان ذلك مؤلماً جداً، لكني اكتفيت بصرّ أسناني وتحمل الأمر. لكن أسوأ ألم توجب عليّ تحمله كان ضرب الجهة الخلفية لساقيّ بمقبض المكنسة. فقد كانت ضربات المكنسة تتركني أحياناً مرمياً على الأرض، عاجزاً تقريباً عن الحركة. وفي أكثر من مرة، توجب عليّ العرج للوصول إلى الشارع وأنا أدفع (جزّازة) العشب الخشبية القديمة أمامي في محاولة لجني بعض المال لها.

وأخيراً، جاء وقت لم يعد فيه وجود والدي في المنزل يجديني نفعاً لأن أمي منعتني من رؤيته. تدهورت آمالي وبدأت أعتقد أن حياتي لن تتغير أبداً. ظننت أني سأكون عبد أمي طالما حييت. ومع مرور كل يوم، كانت إرادتي تضعف شيئاً فشيئاً. لم أعد أحلم أبداً بسوبرمان أو ببطل خرافي ليأتي وينقذني. عرفت أن وعد والدي بأخذي بعيداً كان مجرّد خدعة. توقفت عن الصلاة وفكرت فقط في عيش حياتي يوماً بيوم.

في صباح أحد الأيام في المدرسة، طُلب مني التوجه إلى ممرضة المدرسة. سألتني عن ثيابي وعن مختلف الرضوض التي تملأ ذراعيّ. في البداية، أخبرتها بما علّمتني إياه أمي. لكن ثقتي فيها بدأت تزداد، فأخبرتها المزيد والمزيد عن أمي. دوّنت الملاحظات وطلبت مني المجيء لمقابلتها كلما أردت التحدث مع شخص ما. أدركت لاحقاً أن الممرضة أصبحت مهتمة بي بسبب بعض التقارير التي كانت قد

تلقتها من المعلمة البديلة في بداية السنة الدراسية.

خلال الأسبوع الأخير من شهر تشرين الأول، جرت العادة في منزل أمي أن يعمد الصبيان إلى حفر التصاميم في اليقطين. لقد حرمت من هذه الميزة منذ كنت في السابعة أو الثامنة من عمري. وحين جاءت الليلة المخصصة لحفر اليقطين، ملأت أمي المغطس بالماء ما إن أنهيت واجباتي. حذرتني مرة أخرى بضرورة إبقاء رأسي تحت الماء. ولتذكيري بالأمر، أمسكت بعنقي ودفعت رأسي تحت الماء. خرجت بعدها من الحمام وأطفأت الضوء أثناء خروجها. نظرت إلى يساري واستطعت المشاهدة عبر نافذة الحمام الصغيرة أن الليل بدأ يهبط. قضيت الوقت وأنا أعدّ لنفسي. بدأت بالرقم واحد وتوقفت عند الألف. ثم بدأت مجدداً. ومع مرور الساعات، شعرت بالماء يصرّف ببطء. لكن الماء أصبح أكثر برودة عندئذ. أمسكت ساقيّ بيديّ ومددت كامل جسمي على الجهة اليمنى للمغطس، فاستطعت سماع أصوات أسطوانة "الهالووين" التي اشترتها أمي لأخي ستان قبل بضعة أعوام. صاحت الأشباح، وانفتحت الأبواب. وبعدما انتهى الصبيان من حفر اليقطين، استطعت سماع أمي بصوتها الناعم تخبرهما قصة مرعبة. وكلما سمعت كلامها، ازداد كرهي لكل واحد منهم. فمن المخزي فعلاً الانتظار مثل الكلب في الفناء الخلفي على الصخور فيما هم يستمتعون بالعشاء. لكن الجلوس في المغطس البارد وأنا أرتعد في محاولة للحفاظ على الدفء فيما هم يتناولون الفوشار ويستمعون إلى حكايات أمي جعلني أرغب فعلاً في الصراخ.

ذكّرتني نبرة أمي في تلك الليلة بأمي اللطيفة التي أحببتها قبل عدة أعوام. حتى الصبيان باتا يرفضان الآن الاعتراف بوجودي في المنزل. أصبحت بالنسبة إليهما أقل أهمية من الأرواح التي تصرخ من أسطوانة ستان. بعدما توجه الصبيان إلى النوم، جاءت أمي إلى الحمام. بدت مذهولة حين شاهدت أني لا أزال مستلقياً في المغطس. "هل تشعر بالبرد؟"، صرخت في وجهي. ارتعدت وهززت رأسي للإشارة إلى أني أشعر ببرد شديد. "حسناً، لماذا لا يخرج إذاً ولدي الصغير نفسه من الحمام ويدفئ نفسه في سرير والده؟".

خرجت من المغطس وارتديت ثيابي الداخلية وتوجهت إلى سرير أبي فبللت الشراشف بجسمي الرطب. ولأسباب لم أفهمها، قررت أمي السماح لي بالنوم في غرفة النوم الرئيسية، سواء كان والدي موجوداً في المنزل أو لا. كانت تنام في غرفة النوم العلوية مع إخوتي. لم أكترث حقاً للأمر طالما أني لست مجبراً على النوم في سريري النقال في الكاراج البارد. في تلك الليلة، عاد والدي إلى المنزل، لكن قبل أن أستطيع قول أي شيء له، غصت في نوم عميق.

بحلول العيد، كانت معنوياتي محبطة تماماً. كرهت التواجد في المنزل خلال العطلة الممتدة على أسبوعين وانتظرت بفارغ الصبر عودتي إلى المدرسة. تلقيت في يوم العيد زوجاً من المزالج. تفاجأت لأني تلقيت أي شيء، لكن تبين أن المزالج لم تكن هدية بمناسبة العيد. فهي مجرّد أداة أخرى تستعملها أمي لإخراجي من المنزل وجعلي أعاني. ففي عطلات نهاية الأسبوع، كانت أمي تجبرني على التزلج خارجاً فيما بقية الأولاد في الداخل بسبب الطقس البارد. كنت

أجول الشارع صعوداً ونزولاً من دون أية سترة لإبقائي دافئاً. كنت الولد الوحيد الموجود في الخارج. وفي أكثر من مرة، كان طوني، أحد جيراننا الأربعة، يخرج من منزله للحصول على صحيفته المسائية ويشاهدني أتزلج. كان يوجه إليّ ابتسامة كبيرة قبل العودة إلى الداخل هرباً من البرد. وفي محاولة للبقاء دافئاً، كنت أتزلج بأسرع ما يمكن. استطعت مشاهدة الدخان ينبعث من مداخن المنازل المشتعلة على مواقد. تمنيت لو أني أستطيع التواجد في الداخل، والجلوس قرب النار. أجبرتني أمي على التزلج لعدة ساعات دفعة واحدة. وكانت تطلب مني الدخول فقط إذا أرادت مني إنجاز بعض الواجبات لها.

في نهاية شهر آذار من ذلك العام، دخلت أمي في مرحلة المخاض فيما كنا في المنزل في عطلة الربيع. وفيما أخذها والدي إلى مستشفى في سان فرانسيسكو، صلّيت أن يكون المخاض حقيقياً وليس زائفاً. أردت بشدة أن تبقى أمي خارج المنزل. وعرفت أنه برحيلها سوف يطعمني والدي. شعرت أيضاً بالسعادة لأني تحررت من الضرب.

أثناء مكوث أمي في المستشفى، سمح لي والدي باللعب مع أخويّ. تم قبولي فوراً معهما. لعبنا "حرب النجوم" ومنحني رون شرف تأدية دور الكابتن كيرك. وفي اليوم الأول، قدم لنا والدي السندويشات على الغداء وسمح لي بتناول سندويش ثانٍ. وحين ذهب والدي إلى المستشفى لزيارة أمي، لعبنا نحن الأربعة في منزل جارة لنا اسمها شيرلي. كانت شيرلي لطيفة معنا وعاملتنا كما لو أننا فعلاً

أولادها. راحت تسلّينا بألعاب مثل البينغ البونغ أو تركتنا نلعب بحرية في الخارج. ذكرتني شيرلي في بعض النواحي بأمي التي عرفتها قبل أن تبدأ بضربي.

وبعد أيام قليلة، عادت أمي إلى المنزل. عرّفت العائلة على شقيق جديد اسمه كفين. وبعد بضعة أسابيع، عادت الأمور إلى طبيعتها. راح والدي يمكث خارج المنزل معظم الوقت، واستمريت أنا في تأدية دور كبش المحرقة الذي تنفّس فيه أمي عن إحباطها.

نادراً ما كانت أمي تقضي الوقت مع الجيران، ولذلك لم يكن طبيعياً بالنسبة إليها حين أصبحت صديقة مقرّبة من شيرلي. كانتا تزوران بعضهما بعضاً يومياً. وفي حضور شيرلي، كانت أمي تؤدي دور الأم الحنونة والمحبة – تماماً مثلما كانت في الماضي. وبعد عدة أشهر، سألت شيرلي أمي عن السبب الذي يمنع دايفيد من اللعب مع بقية الأولاد. شعرت أيضاً بالفضول لمعرفة السبب الذي يجعل دايفيد معاقباً غالباً. ابتكرت أمي مجموعة منوعة من الأعذار. فدايفيد مصاب بالزكام أو أنه يحضر مشروعاً للمدرسة. وفي النهاية، أخبرت شيرلي أن دايفيد ولد سيء ويستحق العقاب لوقت طويل.

ومع الوقت، أصبحت العلاقة بين شيرلي وأمي متوترة. وفي أحد الأيام، ومن دون سبب ظاهري، فسخت أمي كل الروابط مع شيرلي. لم يعد يسمح لابن شيرلي باللعب مع الصبيين وكانت أمي تجول في المنزل وتناديها بالعاهرة. ورغم أنه لم يكن يسمح لي باللعب مع الآخرين، شعرت بأمان أكبر حين كانت أمي صديقة شيرلي.

في يوم أحد من آخر شهر في فصل الصيف، جاءت أمي إلى غرفة النوم الرئيسية حيث أمرتني بالجلوس على يديّ في وضعيتي الاعتيادية. طلبت مني النهوض والجلوس على زاوية السرير. أخبرتني من ثم أنها سئمت من الحياة التي نعيشها. قالت لي إنها آسفة وتريد التعويض عن الوقت الذي فات. ابتسمت ابتسامة عريضة جداً وقفزت إلى ذراعيها وأمسكتها بقوة. وفيما بدأت تمرر يديها في شعري، رحت أبكي. بكت أمي أيضاً وبدأت أشعر أن أوقاتي العصيبة انتهت. أفلتت من العناق ونظرت في عينيّ أمي. أردت التأكد من الأمر. أردت سماعها مجدداً. "هل انتهى حقاً كل شيء؟"، سألتها بخجل.

"لقد انتهى يا حبيبي. بعد الآن، أريدك أن تنسى كل ما حدث تماماً. سوف تحاول أن تكون ولداً جيداً، أليس كذلك؟"

أومأت برأسي.

"إذاً، سأحاول أن أكون أماً جيدة".

بعد ذلك، سمحت لي أمي بأخذ حمام ساخن وارتداء الملابس الجديدة التي كنت قد تلقيتها في عيد الميلاد الماضي. فلم يُسمح لي قبلاً بارتدائها. أخذتني بعدها أمي مع أخويّ للعب البولينغ فيما بقي والدي في المنزل مع كفين. وأثناء عودتنا إلى المنزل من نادي البولينغ، توقفت أمي أمام متجر واشترت لكل منا لعبة صغيرة. وعند وصولنا إلى المنزل، قالت أمي إني أستطيع اللعب خارجاً مع بقية الأولاد، لكني أخذت اللعبة الجديدة إلى زاوية غرفة النوم الرئيسية ولعبت وحدي. للمرة الأولى منذ عدة أعوام، باستثناء العطلات التي كنا نستقبل فيها الضيوف في المنزل، تناولت الطعام

مع العائلة أمام مائدة الطعام. كانت الأمور تحدث بسرعة، وشعرت أن ثمة شيئاً لا يصدق. وعلى رغم سعادتي الكبيرة، شعرت أني أسير فوق قشور البيض. كنت متأكداً أن أمي ستستيقظ وتعود مجدداً إلى ذاتها القديمة. لكنها لم تفعل. أكلت كل ما أردته خلال العشاء وسمحت لي بمشاهدة التلفزيون مع أخويّ قبل خلودنا إلى النوم. رأيت أنه من الغريب فعلاً أن تصرّ أمي على متابعتي النوم مع والدي، لكنها قالت إنها تريد أن تكون بالقرب من الطفل.

في اليوم التالي، فيما كان والدي في العمل، جاءت سيدة من الخدمات الاجتماعية إلى منزلنا في فترة بعد الظهر. طلبت مني أمي اللعب خارجاً مع إخوتي، فيما كانت تتحدث مع السيدة. تحدثا معاً لأكثر من ساعة. وقبل أن تغادر السيدة، استدعتني أمي إلى المنزل. أرادت السيدة التحدث معي لبضع دقائق. أرادت أن تعرف ما إذا كنت سعيداً. أخبرتها أني كذلك. أرادت أن تعرف ما إذا كنت أتفق مع أمي. أخبرتها أني أفعل. وأخيراً، سألتني ما إذا كانت أمي تضربني. لكن قبل الإجابة، نظرت إلى أمي التي ابتسمت بتهذيب. شعرت أن قنبلة انفجرت في أعماق معدتي. ظننت أني سأتقيأ. أدركت فجأة السبب الذي غيّر أمي في اليوم الفائت، والسبب الذي جعلها لطيفة جداً معي. شعرت أني أحمق لأني وقعت في الفخ. كنت أتوق جداً إلى الحب لدرجة أني صدقت كل اللعبة.

إلا أن يد أمي على كتفي أعادتني إلى الحقيقة. "حسناً، أخبرها يا حبيبي"، قالت أمي وهي تبتسم مجدداً. "قل لها إني أدعك تموت جوعاً وأضربك مثل الكلب"، ابتسمت أمي فيما تحاول دفع السيدة للضحك أيضاً.

نظرت إلى السيدة. شعرت أن وجهي متورد وشعرت بنقاط العرق تتكوّن على جبيني. لم يكن لديّ الجرأة لأخبر السيدة بالحقيقة. "لا، ليس الأمر هكذا على الإطلاق"، قلت لها. "تعاملني أمي بصورة جيدة".

"ولم تضربك أبداً؟"، سألت السيدة.

"لا... أوه... أعني فقط حين أعاقب... حين أكون ولداً سيئاً"، قلت وأنا أحاول إخفاء الحقيقة. لكني عرفت من نظرة أمي أني قلت الشيء الخطأ. لقد غسلت دماغي طوال أعوام، وعبّرت عن الأمر بطريقة سيئة. عرفت أن السيدة انعشت الاتصال بيني وبين أمي.

"حسناً"، قالت السيدة، "أردت فقط المرور وإلقاء التحية". وبعد الوداع، اصطحبت أمي زائرتها إلى الباب.

حين ذهبت السيدة، أغلقت أمي الباب بغضب. "أيها الوغد الصغير!"، صرخت. غطيت وجهي بدافع الغريزة فيما بدأت تتمايل. ضربتني مرات عدة ثم قادتني إلى الكاراج. وبعد أن انتهت من إطعام الصبييْن، نادتني إلى الأعلى لإنجاز واجباتي المسائية. وفيما كنت أغسل الأطباق، لم أشعر بسوء كبير. ففي أعماق قلبي، عرفت أن أمي تعاملني بلطف لسبب مختلف عن مجرّد رغبتها في حبي. كان يجدر بي المعرفة أنها لم تكن تقصد ذلك لأنها تصرفت تماماً مثلما كانت تفعل حين يأتي أحدهم، مثل الجدة، إلى المنزل خلال العطلات. لكني استمتعت على الأقل بيومين جيدين. فأنا لم أستمتع بيومين جيدين منذ فترة طويلة، وبالتالي فإن الأمر يستحق العناء بطريقة ما. عدت مجدداً إلى روتيني واعتمدت على وحدتي للكفاح. لم يعد يتوجب عليّ المشي فوق قشور البيض على الأقل، والتساؤل متى سينهار كل شيء. عادت

الأمور إلى طبيعتها وعدت خادم العائلة مجدداً.

ورغم أني بدأت أتقبّل مصيري لم أشعر قط بالوحدة مثلما فعلت في صباح الأيام التي كان يذهب فيها والدي إلى العمل. كان ينهض من سريره في الخامسة صباحاً في أيام العمل. كنت دائماً مستيقظاً رغم أنه لم يدرك ذلك أبداً. كنت أستمع إليه وهو يحلق في الحمام، وأسمعه وهو متجه إلى المطبخ لتناول شيء ما. عرفت أنه حين ينتعل حذاءه، كان على وشك مغادرة المنزل. أحياناً، كنت أستدير في الوقت المناسب لأشاهده يحمل كيسه الكحلي المخصص للنوم خارج المنزل. كان يقبّلني على جبيني ويقول: "حاول إسعادها وابقَ بعيداً عن طريقها".

حاولت ألا أبكي، لكني كنت أفعل ذلك دوماً. لم أكن أريده أن يرحل. لم أخبره قط بذلك لكني متأكد من أنه عرف ذلك. وبعد إغلاق الباب الرئيسي، كنت أعدّ خطواته التي تقوده إلى الطريق العام. كنت أسمعه يمشي في ممر المنزل. استطعت رؤيته في أفكاري وهو يستدير إلى اليسار للحاق بالباص المتوجه إلى سان فرانسيسكو. أحياناً، حين كنت أشعر بالشجاعة، كنت أقفز من السرير وأركض إلى النافذة بحيث أستطيع إلقاء نظرة خاطفة على والدي. وفي العادة، كنت أبقى في السرير وأتجه نحو المكان الدافئ حيث كان نائماً. تخيّلت أني أستطيع سماعه بعد فترة طويلة من ذهابه. وعند قبولي فكرة ذهابه فعلاً، كنت أشعر ببرد عميق في روحي. لقد أحببت والدي كثيراً. أردت البقاء معه إلى الأبد، وبكيت في داخلي لأني لم أعرف قط متى سأرى والدي مجدداً.

الفصل السابع

7

صلاة الله

قبل شهر تقريباً من دخولي الصف الخامس، بدأت أؤمن أنه لا يوجد إله لي.

ففيما كنت أجلس وحيداً في الكاراج، أو أقرأ لنفسي في شبه ظلمة غرفة نوم أهلي، أدركت أني سأعيش على هذا النحو لبقية حياتي. ما من إله عادل يتركني على هذا النحو. اعتقدت أني وحيد في كفاحي وأن معركتي تمثلت في البقاء على قيد الحياة.

وحين قررت أنه لا يوجد إله أبداً، أصبحت منفصلاً تماماً عن كل ألمي الجسدي. فحين كانت أمي تضربني، بدا وكأنها تنفّس عدوانيتها على دمية بالية. وفي داخلي، راوحت عواطفي بين الخوف والغضب الشديد. لكني في الخارج كنت مثل الإنسان الآلي الذي يكشف نادراً عن أية عواطف. فقد كنت أفعل ذلك حين أفكر فقط أن الأمر سيحلو لهذه المرأة الفاجرة ويعمل لصالحي. كنت أحبس دموعي وأرفض البكاء لأني لم أكن أريد منحها الرضى بهزيمتي.

وفي الليل، لم أعد أحلم أبداً، ولم أسمح كذلك لمخيلتي بالعمل خلال النهار. هكذا، أصبح الهروب المتمثل في مشاهدة نفسي محلقاً بين الغيوم في السماء الزرقاء شيئاً من

الماضي. وحين أخلد إلى النوم، كانت روحي تستنفد في فراغ أسود. لم أعد أستيقظ منتعشاً في الصباح. كنت متعباً وأقول لنفسي إنه بات أمامي يوم أقل للعيش في هذا العالم. أنجزت واجباتي بطريقة خرقاء، وخشيت كل لحظة من كل يوم. فمن دون أحلام، وجدت أن كلمات مثل "أمل" و"إيمان" هي مجرد أحرف موضوعة عشوائياً معاً لتكوين كلمات عديمة المعنى – مجدية فقط في القصص الخرافية.

وحين كنت أحظى بترف الحصول على الطعام، كنت ألتهمه مثل الكلب المشرّد، وأنخر مثل الحيوان الذي يطيع أوامر أمه. لم أعد أكترث أبداً حين تسخر أمي مني فيما أنا ألتهم كسرة الطعام الصغيرة. فما من شيء أدنى مني. وفي أحد أيام السبت، فيما كنت أغسل أطباق الصباح، وضعت أمي بعض الفطائر المحلاّة النصف مأكولة في طبق الكلاب. التهمت كلابها المدللة الطعام إلى أن شبعت وتوجهت بعدها للعثور على مكان للنوم. في وقت لاحق، فيما كنت أضع بعض الأطباق والأواني في الخزانة السفلية، ركعت على يديّ وركبتيّ أمام طبق الكلاب والتهمت ما بقي من الفطائر المحلاّة. وفيما كنت آكل، استطعت شمّ آثار الكلاب، لكني تابعت الأكل على أية حال. لم يزعجني الأمر كثيراً. أدركت تماماً أنه لو رأتني العاهرة وأنا آكل ما ينتمي إلى كلابها، سوف أدفع الثمن غالياً. لكن الحصول على الطعام بأية طريقة ممكنة كان وسيلتي الوحيدة للعيش.

أصبحت روحي في داخلي باردة جداً لدرجة أني كرهت كل شيء. كرهت الشمس أيضاً لأني أدركت أني لن أتمكن أبداً من اللعب في حضورها الدافئ. كنت أشعر بالكراهية كلما سمعت بقية

الأولاد يضحكون أثناء اللعب خارجاً. وكانت معدتي تنقبض كلما شممت رائحة طعام على وشك تقديمه إلى شخص آخر، لأني مدرك تماماً أنه ليس لي. أردت بشدّة تنفيس غضبي على شيء ما كلما جرى استدعائي إلى الطابق الأعلى لتأدية دور خادم العائلة.

كرهت أمي كثيراً وتمنيت لو أنها ميتة. لكن قبل أن تموت، أردتها أن تشعر بعظمة ألمي ووحدتي طوال هذه السنوات. فخلال الأعوام التي كنت أصلي فيها لله، استجاب لي مرة واحدة فقط. ففي أحد الأيام، فيما كنت في الخامسة أو السادسة من عمري، رمتني أمي من أحد أطراف المنزل إلى الطرف الآخر. وفي تلك الليلة، قبل خلودي إلى النوم، ركعت على ركبتيّ وصليت لله. طلبت منه أن يجعل أمي مريضة بحيث تعجز عن ضربي بعد الآن. صليت بقوة وركزت كثيراً لدرجة أني توجهت إلى السرير وأنا مصاب بصداع. وفي صباح اليوم التالي، تفاجأت كثيراً حين علمت أن أمي مريضة. استلقت على الأريكة طوال اليوم، ولم تتحرك إلا نادراً. وبما أن والدي كان في العمل، تولينا أنا وإخوتي الاعتناء بها كما لو كانت مريضة عندنا.

مع مرور السنوات وازدياد كثافة الضرب، فكرت في عمر أمي وحاولت حساب اليوم الذي قد تموت فيه. كنت أتوق إلى ذلك اليوم الذي تغوص فيه روحها في أعماق الجحيم. ففي ذلك الحين فقط سوف أتحرر منها.

كرهت أيضاً والدي. فقد كان مدركاً تماماً للجحيم الذي أعيش فيه، لكنه افتقر إلى الشجاعة لإنقاذي مثلما وعدني مرات عدة في

الماضي. لكن حين تمعّنت في العلاقة التي تربطني بوالدي، أدركت أنه يعتبرني جزءاً من المشكلة. أعتقد أنه يعتبرني خائناً. ففي معظم الأحيان التي كان يتجادل فيها والدي مع العاهرة، كانت أمي تورّطني. كانت تناديني حيثما أكون وتأمرني بتكرار كل كلمة بذيئة استعملها والدي في جدالاتهما السابقة. أدركت أخيراً حقيقة لعبتها، لكن الاختيار بينهما لم يكن صعباً بالنسبة إليّ. فقد كان غيظ أمي أسوأ كثيراً بالنسبة إليّ. كنت أهز رأسي دوماً وأقول بخجل ما تريد سماعه. كانت بعدها تصرخ عليّ وتأمرني بتكرار الكلمات لها في حضور والدي. وفي معظم الأحيان، كانت تصرّ على ضرورة اختراع الكلمات إذا لم أستطع التذكر. وكان هذا يزعجني كثيراً لأني عرفت أنه في محاولتي لتفادي الضرب كنت أعضّ اليد التي أطعمتني غالباً. حاولت في البداية إخبار والدي عن سبب كذبي وتحولي ضده. وقال لي في البداية إنه يفهم، لكني أدركت في النهاية أنه فقد إيمانه فيّ. وبدل الشعور بالأسى عليه، ازداد كرهي له.

لم يعد الصبيان اللذان يعيشان في الطابق الأعلى أخويّ. ففي الأعوام الماضية، كانا ينجحان أحياناً في تشجيعي قليلاً. لكن في صيف العام 1972، تناوبا على ضربي وبدا أنهما يستمتعان برمي وزنهما فوقي. اتضح جلياً أنهما يشعران بالتفوق على خادم العائلة. لذا، كلما اقتربا مني، كان قلبي يصبح قاسياً مثل الصخر، وكنت أكيداً من أنهما شاهدا الكره منبعثاً من وجهي. وفي محاولة لتحقيق نصر نادر وتافه، كنت ألفظ كلمة حقير في أنفاسي كلما تبختر أحدهما أمامي. كنت أحرص على عدم السماح لهما بسماعي. أصبحت أكره الجيران

وأقربائي وكل شخص آخر يعرفني ويعرف الظروف التي أعيش فيها. فقد كان الكره كل ما بقي لي.

وفي قرارة روحي، كرهت نفسي أكثر من أي شخص أو شيء آخر. وأصبحت أعتقد أن كل ما حدث معي أو حولي هو بسببي لأني تساهلت بالأمر كثيراً. أردت الحصول على ما يملكه الآخرون، لكني لم أشاهد أي سبيل لذلك، ولذلك كرهتهم بسبب ما يملكونه. أردت أن أكون قوياً لكني عرفت في داخلي أني مجرّد قزم. لم أملك أبداً الشجاعة للوقوف في وجه أمي الفاجرة، ولذلك استحقيت كل ما حدث لي. فطوال أعوام عدّة، غسلت أمي دماغي إذ دفعتني للصراخ عالياً: "أنا أكره نفسي! أنا أكره نفسي!". لقد أنتجت جهودها نفعاً. وقبل أسابيع قليلة من دخولي الصف الخامس، كرهت نفسي كثيراً لدرجة أني تمنيت لو أني ميت.

لم تعد المدرسة تحمل معها ذلك الرونق المثير مثلما فعلت خلال الأعوام الماضية. فقد كافحت للتركيز على عملي أثناء وجودي في الصف، لكن غضبي المكبوت كان ينفجر غالباً في الأوقات الخاطئة. وبعد ظهر يوم جمعة من شتاء العام 1973، ومن دون أي سبب ظاهري، خرجت من الصف وأنا أصرخ في وجه كل شخص فيما أنا أركض. أغلقت الباب بشدة ورائي لدرجة ظننت أن الزجاج الموجود في الباب سيتحطم. هرعت إلى الحمام ورحت أضرب الجدران بقبضتي الحمراء الصغيرة إلى أن استنزفت كل قوتي. وقعت بعد ذلك على الأرض وأنا أصلي لحدوث أعجوبة. لكن ذلك لم يحدث أبداً.

كان الوقت الذي قضيته خارج الصف أفضل على الأقل من

منزل أمي المجنون. وبما أني كنت منبوذاً من كامل المدرسة، كان رفاقي في الصف يتولون أحياناً إنجاز ما تركته أمي. ومن بين هؤلاء، كان صبي يدعى كليفورد، وهو ولد شرس في ملعب المدرسة يمسك بي دائماً أثناء توجهي إلى منزل أمي بعد المدرسة. وكان الضرب طريقة كليفورد لإبراز مواهبه أمام رفاقه. لم يكن باستطاعتي سوى السقوط على الأرض وتغطية وجهي، فيما يتناوب كليفورد وعصابته على ركلي.

أما آجي فكانت معذبة من نوع آخر. فلم تخفق أبداً في التوصل إلى طرق جديدة ومختلفة لإخباري كم تتمنى لو أموت ببساطة. كان أسلوبها متكبراً بوضوح. فقد كانت آجي تحرص دوماً على أن تكون المسؤولة عن عصابة الفتيات. وبالإضافة إلى تعذيبي، كان إظهار ملابسها المترفة الهدف الأساسي على ما يبدو في حياتها. لطالما عرفت أن آجي لا تحبني، لكني لم أدرك فعلاً مقدار ذلك إلى أن جاء اليوم المدرسي الأخير من سنتي في الصف الرابع. فقد كانت أم آجي تعلّم شعبتي في الصف الرابع. وفي اليوم الأخير من المدرسة، جاءت آجي إلى صفنا وتصرفت كما لو أنها تتقيأ وقالت: "دايفيد بيلزر الكريه سيكون في شعبتي خلال السنة المقبلة". ولم ينتهِ يومها قبل أن تلفظ أمام رفاقها ملاحظة قاسية عني.

لم آخذ آجي كثيراً على محمل الجد إلى أن جاء موعد رحلة للصف الخامس إلى مرفأ السفن في سان فرانسيسكو. ففيما وقفت وحيداً على مقدمة السفينة، أنظر إلى الماء، اقتربت مني آجي وهي تكشف عن ابتسامة خبيثة وقالت بصوت هادئ: "إقفز!". حدقت إليّ

ونظرت أنا إلى وجهها لمحاولة فهم ما تقصده. لكنها تحدثت مجدداً بهدوء ونعومة: "قلت لك إنه يجدر بك المضي قدماً والقفز. أعرف كل شيء عنك يا بيلزر، والقفز هو السبيل الوحيد لخلاصك".

فجأة، سمعت صوتاً آخر من ورائها. "إنها محقة، أنت تعلم ذلك". كان هذا صوت جون، وهو رفيق آخر في الصف وأحد أفراد عصابة آجي. نظرت مجدداً إلى الدرابزون وحدّقت في المياه الخضراء الباردة التي ترتطم بالقسم الخشبي من السفينة. تصوّرت نفسي لبرهة وأنا أغوص في الماء، مدركاً تماماً أني سأغرق. كانت تلك فكرة معزّية تعدني بالفرار من آجي ورفاقها وكل شيء أكرهه في العالم. لكن حواسي الجيدة عادت إليّ ونظرت إلى الأعلى محدقاً مباشرة إلى عينيّ جون ومحاولاً إخفاء دهشتي. وبعد لحظات قليلة، شعر بلا شك بغضبي لأنه استدار وأخذ آجي معه.

في بداية سنتي في الصف الخامس، لم يكن للسيد زيغلر، أستاذ شعبتي، أدنى فكرة عن سبب مواجهتي للمشاكل. لكن ممرضة المدرسة أطلعته لاحقاً على سبب سرقتي للطعام وسبب ارتدائي لهذه الملابس. هكذا، بذل السيد زيغلر جهداً خاصاً لمعاملتي كما لو أني ولد عادي. وبما أنه كان مسؤولاً عن صحيفة المدرسة، تمثلت مهمته في تأليف لجنة من الأولاد للعثور على اسم للصحيفة. توصلت إلى عبارة لافتة، وأصبح خياري بعد أسبوع بين خيارات أخرى دخلت في قرعة المدرسة لاختيار أفضل اسم للصحيفة. واللافت أن الاسم الذي اخترته فاز بالأغلبية. في وقت لاحق من اليوم الذي جرى فيه التصويت، أخذني السيد زيغلر جانباً وأخبرني

عن مدى فخره بي لأن خياري هو الذي فاز. امتصصت المديح مثل الإسفنجة. فأنا لم أسمع أي شيء إيجابي منذ فترة طويلة لدرجة أني أوشكت على البكاء. وفي نهاية اليوم، بعدما طمأنني السيد زيغلر بأني لا أواجه أية مشكلة، أعطاني رسالة لأسلمها إلى أمي.

كنت مبتهجاً جداً وتوجهت إلى منزل أمي أسرع من أي وقت مضى. لكن مثلما توقعت، كانت سعادتي قصيرة الأمد. فقد فتحت العاهرة الرسالة وقرأتها بسرعة وقالت: "حسناً، يقول السيد زيغلر إنه يجدر بي الافتخار بك لتسميتك صحيفة المدرسة. ويقول أيضاً إنك واحد من أفضل التلامذة في صفه. حسناً، ألست مميزاً؟". فجأة، أصبح صوتها بارداً مثل الثلج ووضعت إصبعها أمام وجهي قائلة: "إفهم الأمر جيداً أيها الولد المعتوه! ما من شيء تستطيع فعله للتأثير فيّ. هل تفهمني؟ أنت لا أحد! أنت نكرة! أنت غير موجود! أنت ولد لعين! أكرهك وأتمنى لو أنك ميت! ميت! هل تسمعني؟ ميت!"

بعد تمزيق الرسالة إلى أجزاء صغيرة، استدارت أمي بعيداً عني وعادت لمشاهدة برنامجها التلفزيوني. وقفت بلا حراك، أحدق إلى الرسالة التي تناثرت مثل كرات الثلج عند قدميّ. ورغم أني سمعت الكلمات نفسها مراراً وتكراراً، أذهلتني هذه المرة كلمة "نكرة" مثلما لم تفعل قبلاً. لقد سلبتني وجودي. فقد أعطيت كل ما أستطيع لتحقيق شيء إيجابي تعترف به. لكني أخفقت مجدداً. انهار قلبي أكثر من أي وقت مضى. كانت كلمات أمي نابعة من صميم قلبها. لكم كنت سأشعر بالارتياح لو أنها عادت مع سكين وأنهت كل المسألة.

ركعت على الأرض محاولاً جمع أجزاء الرسالة مجدداً مع

بعضها بعضاً. لكن ذلك مستحيل. وضعت أجزاء الرسالة في سلة المهملات وتمنيت لو تنتهي حياتي. آمنت فعلاً في تلك اللحظة أن الموت سيكون أفضل من مشاريعي لأي نوع من السعادة. أنا لست سوى "نكرة".

أصبحت معنوياتي محبطة جداً لدرجة أني تمنيت لو أنها تقتلني، وشعرت أنها ستفعل ذلك في النهاية. كان الأمر في عقلي مجرّد مسألة توقيت لفعلها ذلك. هكذا، بدأت أغيظها عن قصد على أمل أن أستفزّها كفاية بحيث تنهي في النهاية بؤسي. بدأت أنجز واجباتي بطريقة لامبالية. ورحت أحرص على نسيان مسح أرض الحمام على أمل أن تنزلق أمي أو أحد أتباعها على الأرض القاسية ويؤذيا أنفسهما. وحين كنت أغسل أطباق المساء، كنت أترك بعض الطعام على الأطباق، أردت أن تعرف الفاجرة أني لم أعد أكترث لها.

فيما بدأ موقفي يتغير، أصبحت أكثر وأكثر تمرداً. في أحد الأيام، انفجرت غضباً في متجر البقول. كنت أبقى عادة في السيارة لكن أمي قررت لسبب ما اصطحابي معها إلى الداخل. طلبت مني إبقاء إحدى يدي ملتصقة بعربة التسوق وحني رأسي نحو الأرض. لكني رفضت إطاعة كل أوامرها عن قصد. عرفت أنها لا تريد استهلال مشكلة أمام العموم، ولذلك مشيت أمام العربة وحرصت على بقائي على مسافة ذراع على الأقل منها. وإذا قال لي أخواي أية ملاحظات، كنت أردّ عليهما. قلت لنفسي ببساطة إني لن أكون خادم أحد بعد الآن.

عرفت أمي أن بقية المتسوقين ينظرون إلينا ويستطيعون سماعنا، ولذلك أمسكت ذراعي برفق مرات عدة وطلبت مني الهدوء بصوت

ناعم. شعرت بحيوية كبيرة لأني أدركت أني المسيطر في المتجر، لكني أدركت أيضاً أنه بعد خروجنا سوف أدفع الثمن. ومثلما اعتقدت، صفعتني أمي بقوة قبل وصولنا إلى السيارة. وما إن أصبحنا في السيارة، حتى أمرتني بالاستلقاء على أرضية المقعد الخلفي حيث تناوب الصبيان على ركلي بأقدامهما للانتقام لأنفسهما ولأمي. ومباشرة بعد دخولنا إلى المنزل، حضّرت أمي مزيجاً خاصاً من الأمونيا والكلوروكس. لقد عرفت بلا شك أني أستعمل الخرقة البالية بمثابة قناع لأنها وضعت هذه المرة الخرقة البالية في الدلو. وما إن أغلقت باب الحمام حتّى أسرعت إلى فتحة التدفئة. لكن الأمر لم ينجح. فلم يخرج أي هواء جديد عبر الفتحة. لا شك في أنه مضى على وجودي أكثر من ساعة في الحمام لأن الدخان الرمادي ملأ كل الغرفة الصغيرة وصولاً إلى الأرض. امتلأت عيناي بالدموع، الأمر الذي بدا أنه نشّط السم أكثر فأكثر. رحت أتقيأ المخاط وأتنهّد إلى أن ظننت في النهاية أنه سيغمى عليّ. وحين فتحت أمي الباب أخيراً، اندفعت نحو الممشى لكن يدها أمسكتني بعنقي. حاولت إقحام وجهي في الدلو لكني كافحت بقوة وفشلت في محاولتها. كما أن خطتي في التمرد فشلت بدورها. عدت إلى الخنوع، لكني بقيت أشعر في قرارة نفسي بالضغط يتراكم مثل البركان وهو ينتظر الانفجار من أعماق روحي.

ولعل الشيء الوحيد الذي أبقاني عاقلاً هو شقيقي كفين. فقد كان طفلاً جميلاً وأحببته. قبل ثلاثة أشهر ونصف الشهر تقريباً من ولادته، سمحت لي أمي بمشاهدة رسوم متحركة خاصة بعيد الميلاد. وبعد انتهاء البرنامج، ولأسباب غير واضحة بالنسبة إليّ، طلبت

مني الجلوس في غرفة أخويّ. وبعد دقائق قليلة، دخلت إلى الغرفة ووضعت يديها حول عنقي وبدأت تخنقني. برمت رأسي من جانب إلى آخر في محاولة للإفلات من قبضتها. وحين بدأت أشعر بالإغماء، ركلت ساقيها بدافع الغريزة لإبعادها عني. لكني ندمت سريعاً على ما فعلته.

بعد شهر تقريباً من محاولة أمي لخنقي، أخبرتني أني ركلتها بقوة في المعدة لدرجة أن الطفل سيعاني من تشوه دائم. شعرت أني مجرم. لم تكتفي أمي بتكرار الحادثة أمامي، وإنما كان لديها عدة روايات مختلفة للحادث تخبرها لكل شخص يصغي إليها. قالت إنها حاولت معانقتي، لكني ركلتها أو لكمتها باستمرار على بطنها. وقالت إني ركلتها لأني أغار من الطفل الجديد. قالت إني أخشى أن يحظى المولود الجديد بالمزيد من انتباهها. لقد أحببت كفين فعلاً، لكن بما أنه لم يكن يسمح لي بالنظر إليه أو إلى أخويّ، لم تسنح لي فرصة التعبير له عن مشاعري. وأذكر أنه في أحد أيام السبت، اصطحبت أمي بقية الأولاد إلى لعبة بايسبول في أوكلاند، وتركت والدي ليرعى كفين فيما أنا أنجز واجباتي. بعدما انتهيت من العمل، أخرج والدي كفين من مهده. استمتعت بمشاهدته وهو يزحف في ثيابه الجميلة على الأرض. رأيت أنه طفل جميل. وحين رفع كفين رأسه وابتسم إليّ، ذاب قلبي فعلاً. جعلني أنسى كل معاناتي للحظة. كانت براءته مذهلة لدرجة أني تبعته في أرجاء المنزل. مسحت اللعاب عن فمه وبقيت خلفه على الدوام كي لا يتعرض للأذى. وقبل عودة أمي، لعبت معه لعبة جميلة. نجحت ضحكة كفين في ملء

قلبي بالدفء. وكلما شعرت لاحقاً بالاكتئاب، كنت أفكر فيه. كنت أبتسم في داخلي حين أسمع كفين يصرخ فرحاً.

لكن لقائي الوجيز مع كفين تلاشى بسرعة وعادت كراهيتي لتبرز مجدداً. كافحت لدفن مشاعري، لكني لم أفلح في ذلك. عرفت أني لن أحظى أبداً بحب أحد. عرفت أني لن أعيش أبداً حياة مثل إخوتي. والأسوأ من ذلك، عرفت أنها مجرد مسألة وقت حتى يبدأ كفين بكرهي، تماماً مثلما يفعل الآخرون.

في وقت لاحق من ذلك الخريف، بدأت أمي تصبّ حرمانها على اتجاهات مختلفة. فقد كرهتني أكثر من أي وقت مضى، وبدأت أيضاً تنفر من أصدقائها، وزوجها، وشقيقها، وحتى من أمها. ورغم أني كنت ولداً صغيراً، عرفت أن أمي لا تتفق جيداً مع عائلتها. فقد كانت تشعر أن الجميع يحاول أن يقول لها ما يجب فعله. لم تشعر أبداً بالارتياح، خصوصاً مع أمها التي كانت هي أيضاً امرأة قوية الشخصية. كانت جدتي تقترح عادة على أمي شراء فستان جديد أو اصطحابها إلى اختصاصية التجميل. لكن أمي لم تكن تكتفي فقط برفض عروضها، وإنما كانت تصرخ أيضاً في وجهها حتى تغادر جدتي المنزل. وأحياناً، حاولت جدّتي مساعدتي، لكن ذلك جعل الأمور أسوأ مما كانت عليه. فقد أصرّت أمي على أن مظهرها وطريقة تربيتها للعائلة ليسا من شأن أحد. وبعد حصول عدد من هذه المواجهات، أصبحت جدتي تزور نادراً منزل أمي.

مع اقتراب عطلة الأعياد، راحت أمي تتجادل أكثر وأكثر مع جدتي عبر الهاتف. كانت تطلق على أمها كل اسم رذيل يمكن

تخيله. والواقع أن المشكلة الحاصلة بين أمي وجدتي انعكست سلباً عليّ لأنه بعد شجارهما كنت أصبح غالباً محط غضب أمي. وفي إحدى المرات، سمعت أمي تنادي أخويّ إلى المطبخ وتقول لهما إنه لم يعد لديهما جدة أو خال اسمه دان.

كانت أمي عديمة الشفقة أيضاً في علاقتها مع والدي. فحين كان يأتي إلى المنزل، إما للزيارة أو للمكوث ليوم واحد، كانت تبدأ بالصراخ عليه لحظة دخوله من الباب. نتيجة ذلك، أصبح يأتي إلى المنزل ثملاً في أغلب الأحيان. وفي محاولة للبقاء بعيداً عن أمي، كان والدي يمضي وقته غالباً في إنجاز أشياء غريبة خارج المنزل. لا بل إنه كان يتلقى غضبها وهو في عمله. بالفعل، غالباً ما كانت أمي تتلفن لوالدي في المحطة وتطلق عليه أسماء غريبة، علماً أن "عديم الفائدة" و"الخاسر الثمل" كانا من العبارات المفضلة لديها. وبعد بضعة اتصالات، أصبح رجل الإطفائية الذي يجيب على الهاتف يضع السماعة جانباً من دون إبلاغ أبي. وهذا ما جعل أمي غاضبة جداً وأصبحت أنا مجدداً محط غيظها.

منعت أمي والدي من زيارة المنزل لبعض الوقت. والمرة الوحيدة التي شاهدناه فيها كانت أثناء توجهنا إلى سان فرانسيسكو لقبض راتبه. وفي إحدى المرات، أثناء توجهنا للحصول على الراتب، عبرنا حديقة غولدن غايت. ورغم أن غضبي كان متقداً على الدوام، تذكرت تلك الأوقات الجميلة التي كانت الحديقة تعني خلالها الكثير بالنسبة إلى العائلة. بقي أخواي صامتين في ذلك اليوم أثناء عبورنا الحديقة. بدا وكأن الجميع شعر أن الحديقة فقدت نوعاً

ما بريقها ووهجها وأن الأمور لن تعود أبداً إلى ما كانت عليه. أعتقد أن أخويّ شعرا هما أيضاً أن الأوقات الجيدة انتهت بالنسبة إليهما.

تغيّر موقف أمي تجاه والدي لفترة قصيرة. وفي أحد أيام الآحاد، وضعت أمي كل العائلة في السيارة، وراحت تبحث بين متجر وآخر عن أغانٍ ألمانية. أرادت توليد جو مميز لوالدي عند عودته إلى المنزل. أمضت معظم فترة بعد ظهر ذلك اليوم في تحضير الطعام، بالحماس نفسه الذي اشتهرت به قبل عدة أعوام. احتاجت إلى ساعات عدّة لتصفيف شعرها ووضع ماكياجها بالطريقة المناسبة. لا بل إن أمي ارتدت فستاناً يعيد ذكريات الإنسانة التي كانت في ما مضى. ظننت أن الله استجاب حتماً لصلواتي. وفيما كانت تجوب أرجاء المنزل، وترتب كل شيء في مكانه، لم أستطع التفكير سوى في الطعام. عرفت أنها لن تجد في نفسها الشجاعة لمنعي من تناول الطعام مع العائلة. لكن أملي خاب لسوء الحظ.

مرّ الوقت ببطء حتى وصول أواخر بعد الظهر. توقعنا وصول والدي إلى المنزل في الواحدة ظهراً، وكلما سمعت أمي صوت سيارة تقترب من المنزل، كانت تسرع إلى الباب الأمامي في انتظار الترحيب بوالدي بيديها المفتوحتين. قرابة الساعة الرابعة بعد الظهر، جاء والدي يترنّح مع صديق له من العمل. تفاجأ كثيراً بالجو الاحتفالي السائد. سمعت من غرفة النوم صوت أمي وهي تحاول أن تكون صبورة جداً مع والدي. وبعد بضع دقائق، دخل والدي إلى غرفة النوم. نظرت إليه متعجباً. لم أشاهده قط ثملاً إلى هذا الحدّ.

كانت عيناه جاحظتين جداً، وبدا أنه يواجه مشكلة حقيقية في البقاء منتصباً وعيناه مفتوحتان. وقبل أن ينجح في فتح باب الخزانة، عرفت ما سيفعله. عرفت لماذا عاد إلى المنزل. وحين بدأ يملأ حقيبته الكحلية الكبيرة بأغراضه، رحت أبكي في داخلي. أردت أن أصبح صغيراً جداً لأتمكن من القفز داخل حقيبته والذهاب معه.

وحين انتهى من توضيب أغراضه، ركع والدي أمامي وتمتم لي بعض الكلمات. وكلما نظرت أكثر إليه، شعرت بضعف أكبر في ساقيّ. كان رأسي يعجّ بالأسئلة. أين هو بطلي؟ ماذا حدث له؟ وفيما فتح الباب ليغادر غرفة النوم، دخل الصديق الثمل وكاد يرتطم بوالدي. هزّ والدي رأسه وقال بصوت حزين: "لا أستطيع تحمل الأمر بعد الآن. كل شيء. أمك، هذا المنزل، أنت. لا أستطيع تحمل المزيد". وقبل أن يغلق باب غرفة النوم، استطعت سماعه يتمتم: "أنا.... أنا.... أنا آسف".

في ذلك العام، كان عشاء عيد الشكر مختلفاً عن غيره. سمحت لي أمي بتناول الطعام على المائدة مع العائلة كما لو أنها تعبّر عن بعض إيمانها. جلست في كرسيّ ورحت أركز بهدوء كي لا أقول أو أفعل أي شيء يغيظ أمي. استطعت الشعور بالتوتر السائد بين أهلي. تحدثا نادراً مع بعضهما بعضاً ومضغ أخواي الطعام بهدوء. وما إن انتهى العشاء حتى بدأت الكلمات القاسية تندلع. بعد انتهاء الشجار، غادر والدي المنزل. فيما كنت أنظف الطاولة وأغسل الأطباق، لاحظت هذه المرة أني لست الوحيد المتأثر بسلوك أمي. فقد بدا أن أخويّ يعانيان الخوف نفسه الذي عانيته طوال أعوام عدة.

حاول أمي وأبي لبعض الوقت أن يعاملا بعضهما بعضاً باحترام، لكن في يوم عيد الميلاد، تعب كلاهما من التمثيل. فضغط محاولة التصرف بلطف مع الآخر كان شيئاً يفوق طاقتهما. وفيما جلست في أعلى السلم، أنظر إلى أخوي فيما يفتحان هداياهما، استطعت سماع الكلمات الغاضبة التي تبادلاها. صلّيت كي ينجحا نوعاً ما في تسوية الأمر، على الأقل في ذلك اليوم المميز. وفيما جلست على سلّم الطابق الأرضي في صباح عيد الميلاد، عرفت أنه لو أراد الله أن يشعر أمي وأبي بالسعادة، عليّ أن أموت.

بعد بضعة أيام، وضّبت أمي ثياب والدي في صناديق، وأخذتني مع إخوتي إلى مكان يبعد بضعة مبانٍ عن مركز الإطفائية. كان والدي ينتظرنا أمام فندق حقير. بدا الارتياح على تعابير وجهه. شعرت بالأسى في قلبي. فبعد أعوام من الصلوات غير المجدية، عرفت أن الأمر حصل أخيراً – انفصل أهلي عن بعضهما بعضاً. أحكمت قبضتيّ جيداً لدرجة أن أصابعي كادت تغرز في راحتيّ يديّ. وفيما توجهت أمي مع الصبيان إلى غرفة الفندق التي ينزل فيها والدي، جلست في السيارة ألعن اسمه مراراً وتكراراً. كرهته كثيراً لأنه تملّص من العائلة. والأكثر من ذلك ربما، شعرت بالغيرة منه لأنه نجح في الفرار فيما لم أنجح أنا. ما زال عليّ العيش مع أمي. وقبل أن تقود أمي السيارة بعيداً، انحنى والدي نحو النافذة المفتوحة حيث كنت أجلس، وأعطاني رزمة. إنها بعض المعلومات التي قال إنه سيجلبها لي لبحث مدرسي أنجزه في المدرسة. عرفت أنه يشعر بالارتياح لأنه ابتعد عن أمي، لكني استطعت أيضاً رؤية

الحزن في عينيه فيما ابتعدنا بالسيارة وغصنا في زحمة السير.

كانت رحلة العودة إلى مدينة دايلي كئيبة. وحين تحدث أخواي، فعلا ذلك بأصوات خافتة لا تزعج أمي. عندما وصلنا إلى حدود المدينة، حاولت أمي تسلية ابنيها من خلال اصطحابهما إلى ماكدونالدز. وكالعادة، جلست أنا في السيارة فيما دخلوا هم إلى المطعم. نظرت من نافذة السيارة المفتوحة إلى السماء. شاهدت سحابة رمادية باهتة تغطي كل شيء، وشعرت بقطرات الضباب الباردة على وجهي. وفيما رحت أحدق إلى الضباب، شعرت بالخوف لأني عرفت أنه ما من شيء سيضع حداً لأمي بعد الآن. لقد تبدد ذلك الأمل الصغير. لم تعد لديّ الإرادة للمضي قدماً. شعرت أني رجل ينتظر الموت، ولا أعرف متى ستحين ساعتي.

أردت القفز من السيارة، لكني كنت أخشى التحرك مسافة إنش واحد فقط. كرهت نفسي بسبب هذا الضعف. وبدل الركض، أمسكت بالرزمة التي أعطاني إياها والدي وشممتها، في محاولة لاستنشاق عطر والدي.

وحين أخفقت في شم أية رائحة على الإطلاق، سمحت لنفسي بالبكاء والتنهد. في تلك اللحظة، كرهت الله أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم أو أي عالم آخر. فالله يعلم صراعي الممتد طوال أعوام، لكنه وقف يتفرّج فيما الأمور تتحول من السيء إلى الأسوأ. لم يمنحني حتى أثراً لعطر والدي الذي كان يستعمله بعد الحلاقة. لقد سلبني الله بالكامل أعظم أمل لديّ. لعنت اسمه في قرارة نفسي وتمنيت لو أني لم أولد أبداً.

في الخارج، استطعت سماع أصوات أمي والصبيين تقترب من السيارة. مسحت دموعي بسرعة وعدت إلى الأمان الباطني لقوقعتي الصلبة. وفيما خرجت أمي من مرآب السيارات الخاص بمطعم ماكدونالدز، نظرت إلى الخلف وحدّقت إليّ قائلة: "أصبحت ملكي الآن. من المؤسف فعلاً أن والدك لم يعد هنا لحمايتك". عرفت أن كل دفاعاتي أصبحت غير مجدية. لن أنجح في الصمود. عرفت أنها ستقتلني، وإن لم يكن اليوم، فغداً على الأكيد. تمنيت في ذلك اليوم لو تملك أمي الشفقة وتقتلني سريعاً.

فيما راح أخواي يلتهمان الهمبرغر، شبكت يديّ معاً، من دون معرفتهم، وأحنيت رأسي إلى الأسفل، وأغلقت عينيّ وصلّيت من كل قلبي. وحين انعطفت السيارة نحو ممر المنزل، شعرت أن ساعتي قد حانت. فتحت باب السيارة. أحنيت رأسي فيما السلام يملأ قلبي وتمتمت: "... وخلصني من الشرير. آمين".

خاتمة

أنا حيّ يرزق

وفيما أقف أمام الجمال اللامتناهي للمحيط الهادئ، يهبّ عليّ نسيم أواخر بعد الظهر القادم من الهضاب التي خلفي. إنه يوم جميل، كما هي الحال دوماً. ها هي الشمس تغوص في المحيط، أي أن السحر على وشك البداية. فالسماء مستعدة دوماً لتتألق لمعاناً، وتتحول من الأزرق الناعم إلى البرتقالي الساطع. نظرت نحو الغرب ورحت أحدق مذهولاً إلى القوة الهائلة للأمواج. ها هي موجة كبيرة تتكون لتتكسّر من ثم عند ارتطامها بالشاطئ. وصل الرذاذ غير المرئي إلى وجهي، قبل لحظات قليلة من وصول المياه الزبدية البيضاء إلى قدميّ. إلا أن الزبد المليء بالفقاقيع سرعان ما عاد إلى قوة المحيط. فجأة، وصلت قطعة خشبية طافية إلى

الشاطئ، وامتازت بشكلها الغريب والملتف. كان الخشب مليئاً بالثقوب الصغيرة، لكنه في الوقت نفسه ناعم وباهت نتيجة تعرضه لأشعة الشمس. انحنيت لالتقاط القطعة الخشبية. وحين بدأت أصابعي تلامسها، جاءت المياه لتعيدها مجدداً إلى البحر. بدا لي للحظة أن القطعة الخشبية تكافح للبقاء على الشاطئ. تركت وراءها أثراً واضحاً على الشاطئ قبل الوصول إلى المياه التي ارتطمت بها بقوة وقذفتها إلى المحيط.

رحت أحدق إلى القطعة الخشبية وفكرت كيف أنها تذكرني بحياتي السابقة. فقد كانت بدايتي مضطربة جداً، وتم دفعي في كل حدب وصوب. وكلما أصبح وضعي مخيفاً أكثر وأكثر، كنت أشعر أن قوة كبيرة تمتصني إلى دوامة عملاقة. كافحت قدر ما أستطيع، لكن الدوامة بدت بلا نهاية إلى أن أصبحت فجأة، ومن دون سابق إنذار، حراً طليقاً.

أنا محظوظ جداً. لقد أصبح ماضيّ الكئيب ورائي الآن. وعلى رغم سوئه، استنتجت من تحليلي النهائي أن طريقة عيشي كانت تعود إليّ، حتى في ذلك الحين. قطعت وعداً على نفسي بأنه إذا خرجت من ورطتي حياً، عليّ أن أحقق شيئاً لنفسي. سوف أكون أفضل شخص يمكن أن أكونه. وها أنا اليوم كذلك. حرصت على التخلص من ماضيّ، وقبلت بحقيقة مفادها أن ذلك الجزء من حياتي كان مجرد كسرة بسيطة منها. عرفت أن الثقب الأسود موجود هناك ينتظر ابتلاعي والتحكم في مصيري إلى ما لانهاية - شرط أن أسمح له بذلك. إلا أني اتخذت موقفاً إيجابياً تجاه حياتي.

أنا محظوظ جداً. فتحديات الماضي جعلتني قوياً من الداخل على نحو لا يصدق. تأقلمت بسرعة، وتعلمت كيفية النجاة من وضع

سيء. تعلمت سرّ الحافز الداخلي. فقد أعطتني تجربتي نظرة للحياة تختلف عن تلك التي يعرفها الآخرون. أنا أقدّر كثيراً الأمور التي يستخف بها الآخرون. صحيح أني ارتكبت بعض الأخطاء خلال مسيرتي، لكني كنت محظوظاً كفاية لتجاوزها. وبدل البكاء على أطلال الماضي، حافظت على التركيز نفسه الذي علمته لنفسي قبل أعوام عديدة في الكاراج، وأنا مدرك تماماً أن الله الطيب يحرسني دوماً ويمنحني التشجيع والقوة حين أحتاج إليهما.

كما أن حظي الجيد يعني حصولي على فرصة اللقاء بالعديد من الأشخاص الذين أثروا إيجاباً في حياتي. إنه بحر لامتناه من الوجوه التي تحثني، وتعلمني اتخاذ القرارات الصحيحة، وتساعدني على وصولي للنجاح. لقد شجعوا سيطرة جوعي. لذا، انخرطت في القوات الجوية الأمريكية واكتشفت القيم التاريخية والحس القوي بالفخر والانتماء الذي لم أكن أعرفه قبل ذلك الحين. فبعد سنوات من الكفاح، أصبح غرضي واضحاً. وأدركت قبل كل شيء أن أمريكا هي الأرض التي يمكن أن يأتي فيها الشخص من بدايات أقل من متواضعة ليصبح منتصراً كبيراً.

أعادتني موجة كبيرة متكسّرة إلى الحقيقة. لقد اختفت قطعة الخشب التي كنت أبحث عنها في المياه المتخبطة. ومن دون أي تردد، استدرت بعيداً وتوجهت نحو سيارتي. وبعد لحظات، قدت سيارة التويوتا عبر المنعطفات المتتالية وأنا متوجه إلى دنياي المثالية السرية. قبل أعوام عديدة، حين كنت أعيش في الظلام، كنت أحلم بمكاني السري. وها أنا اليوم أعود دوماً إلى النهر (ريفرسايد) كلما استطعت ذلك. بعدما توقفت

لاستلام طردي الثمين من فيلا ريو في مونتي ريو المجاورة، عدت إلى سيارتي الحبيبة. إنه بالنسبة إليّ سباق مع الوقت لأن الشمس على وشك المغيب وسوف يتحقق أحد أحلام حياتي.

حين دخلت إلى مدينة غيرنفيل الهادئة، أصبحت السيارة الرباعية الدفع تسير ببطء شديد بعد أن كانت بسرعة البرق. دست على المكابح قبل الانعطاف إلى اليمين، إلى جهة النهر (ريفرسايد). أنزلت نوافذ السيارة وملأت رئتيّ بالهواء النقي والمنعش الآتي من أشجار الخشب الأحمر التي تتمايل يميناً وشمالاً.

أوقفت سيارة التويوتا البيضاء أمام المنزل نفسه الذي كنت أعيش فيه أنا وعائلتي قبل زمن طويل خلال عطلات الصيف. 17426 جادة ريفرسايد. وكما هي حال العديد من الأشياء، تغير المنزل هو أيضاً. فقبل أعوام عدة، أضيفت غرفتا نوم صغيرتان وراء الموقد. كما بذلت محاولة لتوسيع المطبخ البالغ الصغر وذلك قبل فيضان العام 1986. حتى الشجرة الكبيرة التي كنا نمضي أنا وإخوتي ساعات لامتناهية في التسلق عليها قطعت وباتت اليوم متعفنة. وحدهما السقف الداكن المصنوع من خشب الأرز والموقد المصنوع من حجارة النهر بقيا على حالهما.

شعرت ببعض الحزن فيما استدرت بعيداً ورحت أسير على الطريق الضيقة المكسوة بالحصى. تأكدت من أني لا أزعج أحداً، وقدت ولدي ستيفن عبر ممر ضيق جداً محاذٍ للمنزل نفسه الذي قادنا إليه أهلي قبل أعوام عدة. أعرف صاحب المنزل وأنا أكيد أنه لن يمانع. من دون قول أية كلمة، حدقنا أنا وولدي إلى الغرب. كان

النهر الروسي ما يزال هو نفسه، مميزاً بلونه الأخضر الداكن وناعماً مثل الزجاج، فيما يتدفق بنعومة نحو المحيط الهادئ العظيم. صوّتت طيور الغراب مع بعضها بعضاً أثناء انزلاقها في الهواء قبل الاختفاء وسط أشجار الخشب الأحمر. أصبحت السماء الآن فوقنا مخططة بالبرتقالي والأزرق. أخذت نفساً عميقاً آخر وأغلقت عينيّ للاستمتاع باللحظة مثلما كنت أفعل قبل أعوام.

حين فتحت عينيّ، انهمرت دمعة واحدة على خدّي. ركعت وطوقت ذراعيّ حول كتفيّ ستيفن. من دون أي تردد، أحنى رأسه إلى الخلف وقبلني قائلاً: "أحبك يا بابا".

"أنا أحبك أيضاً"، أجبته.

حدّق ولدي إلى السماء التي راحت تظلم شيئاً فشيئاً. اتسعت عيناه فيما راح يحدّق إلى الشمس المختفية. "إنه مكاني المفضل في العالم أجمع!"، قال ستيفن.

أصبحت حنجرتي مشدودة. بدأ سيل صغير من الدموع بالتدفق على وجهي. "وهو أيضاً كذلك بالنسبة إليّ"، أجبته.

يعيش ستيفن الآن ذلك العمر السحري من البراءة، لكنه أذكى كثيراً من عمره. وفيما انهمرت الدموع المالحة على وجهي، ابتسم ستيفن وتركني أحافظ على كرامتي. لكنه كان يعرف سبب بكائي. يعرف ستيفن أن دموعي هي دموع الفرح.

"أحبك يا بابا".

"أنا أحبك أيضاً يا بنيّ".